

مذكرات عيسى الخوري باسيل بندك

«أبو يوسف»

١٨٩٨ - ١٩٨٤

مقدمة

ليست مذكراتي هذه مجرد روايات عابرة أو حكايات للمسامرة. فهي تدوين لحقائق صارخة مدوية. تشير بأصبع من نار إلى الجرم الشرس. الذي هزئ بشرائع الطبيعة البشرية ومقوماتها الحضارية. فباع وطناً لا يملكه إلى عصابة شريرة هدفها إغراق الإنسانية في بحر من الدماء الساخنة؛ إرواء لغليلها. وتحقيقاً لأهدافها الرامية إلى فرض سيادتها على العالم أجمع.

جتاز الأمة العربية اليوم. مرحلة عصبية من أخطر مراحل حياتها منذ نكسة الأندلس الفاجعة. وقد امتازت الأمة العربية عن غيرها من الأمم. بأنها خلقت للإنسانية تراثاً حضارياً خالداً على مدى الدهر. وما زالت أضواؤه تتلألأ من فوق أبراج التاريخ كإطلالة الشمس بعد ليل دامس عبوس. لتكسو الكون برداً مضيئاً. يتدفق بهجة وسرورا بل يتدفق مرحاً ونورا.

لقد فرض على الأمة العربية سرطان قصد به نفتيت وتمزيق الوجود العربي إرباً إرباً. ذلك أن الغرب منذ أن اندفعت جحافل العرب من الجزيرة الجرداء وطوحوا بإمبراطوريتين عظيمتين كانتا جاثمتين فوق الجزيرة العربية وهما الفارسية والرومانية. وقد استطاعت تلك الجحافل في برهة قصيرة من الزمن. أن تدوخ كثيراً من الأقطار في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا وأوروبا. مشيرة برسالة الهدى والحضارة وسلاحها إيمان تتوجه إرادة جبارة. أصيب الغرب إزاء هذه الانطلاقة البطولية الحضارية. بذهول ورعب وقلق. فاختلق - كذباً وزوراً- حرباً صليبية. اتخذ الدين لها ستاراً زائفاً بينما كان ولا زال الهدف الحقيقي هو: إطفاء شعلة البعث العربي. وبعد أن استمرت الحروب الصليبية زهاء جيلين تصدى لها البطل صلاح الدين وظهر الأراضي العربية من دنس العلوج الكافرين بشريعة الحق والإنسانية والشرف. وها نحن اليوم أمام حرب صليبية ثانية أكثر شراسة من الأولى. إذ تعمد الغرب أن يزرع سرطاناً في قلب الأمة العربية وفي أقدس بقعة من بلاد العرب. بقصد تمزيق وإبادة الوجود العربي. وها هو الشعب الفلسطيني منذ أن أحس بهذا الخطر وهو يتصدى بكل ما لديه من عزم وتضحيات مذهلة. دفاعاً عن نفسه وأرضه وعروبته وقد

تعاقبت ثورات بعد ثورات على مذبح الفداء إلى أن دوى هدير التوعية العارمة التي قادتها وثبتتها منظمة فتح فأثبتت ببطولاتها وتضحياتها ونسورها الميامين أن الشعب الفلسطيني قد روض نفسه على تحدي الأقدار ليصنع المعجزات ويغير مجرى التاريخ ويحقق نصراً للأمة العربية جمعاء.

إن الثورة الفلسطينية الجبارة هي ثورة الحق على الباطل وهي التي ستحرر إرادة العالم العربي لترسم له المصير المضيء بأنوار النصر والمجد والعزة. وهي ثورة قد هزت الضمير العالمي وكشفت الستار الشفاف عن الأكاذيب والافتراءات التي ساقها الغرب. وسلطت الأضواء على تمدد الصهيونية العالمية وبينت مدى خطورة ذلك للعالم أجمع.

نشأتي

تفتحت عيناى وأنا في سن الطفولة على جو روحي، وآخر عشائري، فكان المرحوم والدي، قسيساً لطائفة الروم الأرثوذكس في بيت لحم، وكان رحمه الله شديد الورع والتقوى. يوزع زاد بيته على الفقراء والمعوزين وبعض أقاربه من المحتاجين. وقد توجه إلى الأردن عام ١٩١٤ أثناء الحرب العالمية الأولى. راهناً جميع أملاكه لقاء كميات كبيرة من القمح ابتاعها لتوزيعها على أفراد عائلة البندك يوم تفشيت المجاعة والأمراض وقد تراكمت عليه الفوائد الفادحة وأخذ الدائنون يلحون عليه بدفع ثمن القمح الذي وزعه على جميع أفراد عائلة البندك، من رحمة الله وعنايته، إلا أن وضع جميع أملاكه للبيع لسد تلك الديون، وأذكر والدتي وهي تقول له: حرام عليك أن تترك أولادك في الشارع وأغلبهم أطفال صغار، فكان يرد عليها بحزم وإيمان: «إن الله لا يغفل دينا مستحقاً، فاطمئني» وكان يصحو قبل الفجر ليصلي في هيكل صغير أعده في غرفة خاصة من غرف البيت ويستمر في صلواته نحو ساعة كاملة، وكان في بيت لحم تقليد عشائري يحتم أن يكون لكل حارة كاهن يمثل حملته ويصبح زعيماً وعميداً لعشيرته فكان مشايخ الحمولة يغدون في كل صباح ليشرّبوا القهوة، وكذلك في المساء يجتمعون كندوة عائلة يتبادلون الآراء وهدفهم دوماً تعميق أواصر الوحدة والتضامن، وكانوا يفصلون في كل خلاف يقع بين أفراد العائلة وكان حكمهم قاطعاً، لا مرد له فلا يستطيع أحد أن يعارض أو يمانع في تنفيذه، إذ كان يعلم أنه إذا خالف حكم شيوخ العائلة أصبح منبوذاً محتقراً.

ومن العادات التقليدية التي كانت سارية في بيت لحم خلال العشرينيات من هذا القرن، أن يقيم كاهن الحمولة بصفته زعيمها وعميدها مأدبة عشاء كبرى في بدء صيام الفصح لرؤوساء وشيوخ الحمولة حيث كانت تدار عليهم كوؤوس النبيذ فيهنئون بعضهم بعضاً ببدء موسم الصيام، وكانت تسمى هذه المأدبة «مأدبة الحرومية» أي الحرمان عن أكل اللحم والبيض والخبز

والزينة وإذا ما أقبل العيد فعلى كاهن الحمولة أن يعدّ بيضاً مصبوغاً بالألوان الزاهية. فيجتمع رؤساء الحمولة في صباح العيد في دار كاهنهم وعميدهم ليهنئ بعضهم بعضاً بعيد الفصح. ومن ثم تدار عليه صينية مملوءة بالبيض المصبوغ فيأخذ كل واحد بيضة ثم يتبادل كل واحد مع الآخر «الطقش» ومن ثم تدار عليهم كؤوس المشروبات والحلوى فالقهوة وتكرر هذه العادة التقليدية في عيد الميلاد أيضاً.

وكان هنالك أيضاً تقليد اشتراكي متواضع إذ كان كل شيخ من مشايخ الحمولة في جميع المناسبات سألقة الذكر يحضر معه في منديل نظيف. كمية من القهوة والسكر كما كان أيضاً تقليد اشتراكي آخر في حالة وفاة أحد من أفراد العائلة أن يحضر كل شيخ من مشايخ العائلة سلفط يحتوي على نوع من المأكولات إلى بيت الفقيد موساة لأهله ومساهمة في ذلك المصاب الجلل وتوفيراً على الفقيد عناء الطبخ والخدمة وهم حزانى.

كذلك كان هناك تقليد عشائري آخر له حسناته الإنسانية. إذ كان مفروضاً على كل فرد من أفراد العائلة أن «ينقّط العروس» في يوم جلوة العروس إما قطعة ذهبية أو أكثر حسب إمكانياته. وبذلك يكون جميع أفراد العائلة قد التزموا أدبياً وساهموا مادياً في كل قران وزفاف.

وكان من التقاليد يومذاك في بيت لحم. أن يحضر وفد من كل حمولة من حمائل بيت لحم ليالي الفرح. يستمعون للشاعر على ربابته حتى منتصف الليل فيعلن الشاعر عندئذ أن «طق غزالها» أي انتهت المسرحية فينسحب المهنئون من الحمائل ويبقى أفراد العائلة ونساؤها فقط. فيختلطون بعد انسحاب «الأعراب» ويبدأ الرقص والغناء حتى مطلع الشمس. وكانت مدة الفرح تتراوح بين ثلاث ليالٍ وست. وكان على كل رئيس عائلة أن يعدّ «منسفاً» لعشاء العائلة كدين وواجب وكان أيضاً هناك تقليد عشائري متمزمت في معظم محلات بين لحم. إذ كان شباب كل حارة يحرسون حارتهم كي لا يتجول داخلها شبان من غير حارتهم. غيرة على فتيات العائلة ونساء الحي وكان شبان معظم العائلات لا يتزوجون إلا من بنات محلّتهم.

حنان والدتي

لا أدري سر تفضيل المرحومة والدتي لي. عن سائر بقية أشقائي إذ كنا سبعة ذكور وفتاتين. فكانت تخصني بطعام ولباس مختلفين وكان بالقرب من بيتنا مدرسة تبشيرية إنكليزية ترأسها سيدة تتقن العربية. فكانت تمر ببيتنا صباحاً فتصطحبني إلى مدرستها

يوم كنت لا أجاوز الخامسة من عمري وكانت تضجعني في سريرها حتى المساء وقد أدخلني المرحوم والدي مدرسة مار ميري الأرثوذكسية الداخلية في القدس عام ١٩٠٨ وكان عمري ١٢ سنة وكان ذلك اليوم يوماً كئيباً إذ شعرت بفقد جو الحرية وإجاء إلى جو الحرمان. فكان الطعام فيها طعام نساك وكان التعليم باللغتين اليونانية والعربية. وكان رئيس هذه المدرسة مطراناً اسمه «باكوبوس» فلفتت نظري أناقته في جيبته الفضفاضة والعطر الفاخر الذي كان يملأ الجو عندما كان يسير في صالات المدرسة. وما لفت نظري أكثر. أن كان يزوره يوماً في موعد الغداء طبيب يوناني. مع امرأته الفاتنة اللعوب التي كانت تتمخطر في مشيتها كأنها الطاووس. فكانت على صغر سني. تستهويني بهرجة جمالها وأناقة لباسها وشعرها المجدول. وكثيراً ما كنت أتساءل بوداعة طفولية. إذ كنت أعتقد أن من يلبس الجبة جدير أن يكون قديساً أو ملاكاً فكانت أتساءل هل يجوز لمطران أن ينغمس في نشوة الحب فينسى جيبته وقلنسوته؟ أعترف أنني كنت أكثر الطلبة في تلك المدرسة كسلاً وإهمالاً فلا أذكر أنني حفظت درساً أو تعلمت شيئاً.

سيدنا عمر في بيت لحم

يدعوني الواجب القومي أن أورد عدل إنساني في التاريخ. أجراه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم دخل بيت لحم وجمع رؤسائها ومثليها المسيحيين عام ٦٢٧م. وسألهم عما يحتاجون إليه . فأجمعت كلمتهم على أن بيت لحم ينقصها ماء الشرب فأسس قناة تستمد مياهها من عيون نبع تقع جنوب بيت لحم بالقرب من برك سليمان تعرف باسم عيون عطان. ولما كان نبعها منخفضاً عن بيت لحم أحدث معجزة علمية لا تزال قائمة حتى اليوم ذلك بالضغط على مجرى الماء المنخفض كي تصل إلى خزان بيت لحم المرتفع وذلك بإقامة فجوات مفتوحة بين الفجوة والأخرى مسافة خمسين متراً وبذلك صارت المياه تصل إلى خزان بيت لحم بضغط الهواء ثم أمر أن يكون في الخزان ثقبان ثقب أسفل وثقب أعلى. وجاء في الوصية الشرعية الموجودة حتى الآن في إضبارة المجلس الإسلامي الأعلى في القدس ما يلي: إذا فاضت المياه عن الثقب الأسفل إلى الثقب الأعلى فتسير متوجهة إلى الحرم الشريف إذ أقيمت قناة من خزان بيت لحم إلى الحرم الشريف في القدس. وأذكر أنني رويت هذه الواقعة للمؤرخ المشهور صديقي المرحوم أحمد ذكي باشا المصري وفي صبيحة أحد الأيام . نحو الساعة السابعة صباحاً سمعت أن رجلاً على الباب يريد مقابلتي فقلت لخادمي فليفضل وقد ظننت أن يكون أحد أقاربي أو من أصدقائي وكنت لا أزال بثياب النوم. فدهشت عندما كان القادم صديقي العزيز المرحوم أحمد ذكي باشا فبعد أن تعانقنا قال لي: إنني لا أشك مطلقاً في عدل سيدنا عمر ولكن أشك في تفاصيل روايتك ولذلك أرجو أن تصطحبني أولاً إلى الخزان لأرى بعيني الثقبين الأسفل والأعلى ومن ثم أود أن أرى الفجوات المفتوحة التي بواسطتها يضغط الهواء على مسيرة الماء فتصل إلى مكان أعلى من منابعها. وبالفعل بعد أن تناول طعام الفطور رافقته إلى خزان المياه فعندما شاهدها أخذ يكبر وعانقني عناقاً عنيماً وكتب مقالاً إضافياً عما شاهد في جريدة الأهرام وكان ذلك عام «١٩٣٣».

الشيخ الديرى فى بيت لحم

قرأت منذ مدة فى جريدة الرأى الأردنية العدد ٢٥٨٢ بتاريخ ٢٠ ت ١٩٧٦ مقالاً قيماً للأستاذ المؤرخ السيد على خلف بعنوان تدنيس الأماكن الإسلامية المقدسة، لفت نظري رواية نقلها الأستاذ كاتب المقال عن الكاتب الإنكليزي «كينج ليك» فى كتابه رحلة إلى الشرق الأوسط جاء فيه: حين دخل إبراهيم باشا بيت لحم منتصراً شكوا أهلها النصارى اعتداءات تقع بين الحين والآخر من المسلمين عليهم فأمر المسلمين بمغادرة بيت لحم فوراً وأن يعود كل منهم إلى بلده.

إنها رواية زائفة مئة بالمئة وذلك لأن مسلمي بيت لحم الذين أصلهم من قرية فاغور القريبة من بيت لحم قد اندمجوا مع بيت لحم وسكانها كمحلة قائمة بذاتها بين محلات بيت لحم وتعرف بمحلة الفواغرة. ولعل رواية الكاتب الإنكليزي تشير إلى الشيخ الديرى الذى احتل دير الروم الأرثوذكس فى بيت لحم وهو من قرية بيت فجار وكان ذلك فى أواخر القرن التاسع عشر وكان مع هذا الشيخ عصابة مسلحة يستخدمها للابتزاز والبلص من المسيحيين والمسلمين على السواء. وبلغ به أن فرض «خاوة» على كل عربي سواء أكان مسلماً أم مسيحياً تدفع للشيخ المذكور. مما أدى إلى اتفاق كلمة المسيحيين والمسلمين لإبادة هذه العصابة وعهدوا إلى حارس دير اللاتين أن يشعل شمعة من نافذة الدير المطلة على الساحة العمومية عندما يصحو الشيخ الديرى ليؤدي صلاة الصبح. وبالفعل ما أن أخذ الشيخ وجماعته فى تأدية صلاة الصبح حتى اقتحم أحرار بيت لحم من مسيحيين ومسلمين الدير وأغمدوا سيوفهم فى غور أولئك المغامرين الغزاة الذين هزموا شر هزيمة وأسدل الستار على مغامرة عابرة ليس للإسلام ولا للمسيحية أي أثر فيها.

ابراهيم باشا فى بيت لحم

وصل إبراهيم باشا بجيشه إلى بيت لحم عام ١٨٣١ وخندق فى قلعة فلايون الواقعة على ضفاف برك سليمان واستدعى وجهاء بيت لحم طالباً منهم جنيد شبابهم لينضموا إلى جيشه وكان المقصود حماية ظهره ومؤخرة جيشه. ولم يكن المقصود إضافة عناصر جديدة للجيش. إذ لم تكن تنقصه القوة البشرية. فوعده أن يبلغوه قرارهم فى اليوم التالي. نادعوا لاجتماع وفى ندوتهم الخاصة - وبعد أن تبادلوا الرأى - اتفقوا أن يبلغوه «بأن إبراهيم باشا سيل ماء جارٍ... وأما هم أهل بيت لحم فصرار باق» وأنهم غير مستعدين أن يجازفوا ضد دولة حمى ديارهم وأعراضهم ومقدساتهم وأنهم يشيرون عليه بالرحيل عن بلدهم. وهذا ما جرى بالفعل.

تأسيس أول نادي أدبي في بيت لحم

كان لطائفة اللاتين في بيت لحم سنة ١٩١٩ خوري طائفة اسمه الأب أنطون حنا وهو من والدين بيت لحمين أرثوذكسيين دفنا في مقبرة الروم الأرثوذكسية، وكان هذا الخوري سامحه الله متزمتاً محدود الأفق ومتعصباً محاولاً منع الزواج بين الأرثوذكسيين واللاتين في حين أن حارات بيت لحم الست تعتبر عائلة واحدة تجمعها روابط نسب وقربى وأدى تزمت الأب أنطون أن بعضاً من خيرة الفتيات من طائفة اللاتين قد عشنا عزباوات لعدم السماح لأهلهن بزواجهن من شباب أرثوذكسيين. فتحدثت مع نخبة من شبان العائلات اللاتين وأقنعتهم بوجوب تأسيس نادي أدبي يقاوم هذه النعرة الطائفية ويدعو إلى الأخوة والسلام والاتحاد واخترت أبناء العائلات المشهورة من بين العائلات اللاتينية، فتشكل النادي من الإخوان حنا خليل دكرت رئيساً ويعقوب سليمان جاسر. وجورج حنا المنصور وخليل الدبدوب وكلهم من عيون طائفة اللاتين وانتخبت سكرتيراً للنادي وأسسنا مدرسة ليلية كنت أدرس الشبان والعمال مبادئ اللغة العربية كما كنت أستهل الدرس بخطبة موجزة عن توثيق روابط المودة والاتحاد بين جميع أهالي بيت لحم على اعتبار أنهم جميعاً أعضاء عائلة واحدة ويمتتون بصلة لأمة واحدة هي الأمة العربية. إزداد الإقبال على النادي خصوصاً على المدرسة الليلية، وتلقى النادي دعماً مادياً بسخاء من أغنياء المدينة بعد أن شعروا بما يؤديه من خدمات لاقت تجاوباً وتأييداً من الشعب والوطن وقد خف شعور التزمت وكاد أن يكون هناك بواذر من التمرد إذ ألف صديقي الحميم المرحوم حنا خليل دكرت رئيس النادي كتاباً باسمه أثار غضب البطريك برسلينا بطريك اللاتين إذ أقام دعوى على المرحوم السيد حنا خليل وانتهت نصراً لحرية الفكر برغم الأدوار التي مرت بها المحكمة وأصبح النادي المذكور رمزاً للوعي الوطني في فلسطين إذ أصبح بمثابة الندوة الوطنية التي يلتقي فيها كبار المحاضرين من مشاهير أديباء الأمة العربية من جميع أقطارها كما أصبح ساحة سياسية لاجتماعات وطنية متعاقبة وكان أول اجتماع سياسي يوم وصول لجنة كرين عام ١٩١٩.

لجنة كنج كرين في بيت لحم

كان رؤساء البلديات عام ١٩١٩ لا يخرجون عن رأي الحكومة البريطانية التي روجت فكرة الانتداب البريطاني بينما كان العرب في جميع أقطارهم ينادون بسوريا الكبرى وكان النادي الأدبي على اتصال بالمسؤولين عن فكرة سوريا الكبرى بينما كانت بلدية بيت لحم يومذاك قد مهدت اجتماعاً للمطالبة بالانتداب البريطاني. فذهبت والمرحوم يعقوب نجل المرحوم سليمان جاسر ليلاً إلى فندق مرقص حيث كانت تقيم اللجنة وقابلنا سكرتيرها وأفهمناه أن البلدية لا تمثل رأي الشعب بل هي خاضعة لتعليمات

السلطة لتطالب بالانتداب. وأن نادي الشبيبة هو الممثل للرأي العام وأن على اللجنة أن تزور النادي لتستمع لرأي الشعب. فوعدنا السكرتير أن اللجنة ستحضر إلى بيت لحم في صبيحة اليوم الثاني حوالي الساعة العاشرة صباحاً وبالفعل فقد اجتمع في قاعة النادي أكثر من ثلاثمائة شخص وذهب وفد من النادي لاستقبال اللجنة في مدخل بيت لحم وقد استقبلت اللجنة بالهتاف والتصفيق وبعد أن أخذ الرئيس والأعضاء مقاعدهم قدمنا لهم مذكرة تحتوي على مطالب الشعب مصريين على تحقيق فكرة سوريا الكبرى وبعد أن قدمنا لهم المرطبات توجهوا إلى دار البلدية التي استقبلتهم استقبالاً فاتراً وأدركت تلقائياً أن مطلب النادي كان المطلب الذي يعبر عن رأي الشعب.

إقتحامي ميدان الصحافة

أصدرت مع صديقي المرحوم حنا دكرت مجلة بيت لحم عام ١٩١٩ واستمرت سنتين ثم سافر صديقي المرحوم حنا دكرت إلى أميركا وفي عام «١٩٢٠» أصدرت جريدة صوت الشعب الأسبوعية واستمرت حتى عام ١٩٥٧ وفي عام ١٩٢٥ تآلفت إدارة للجريدة وكان على رأسها صديقي المرحوم خليل عيسى مرقص الذي لم تمض عليه مدة سنة حتى أتقن فن الكتابة باللغة العربية الفصحى وأنشأ لمقالاته عنواناً تحت اسم «شؤون وشجون» وكان ناجحاً جداً واستمرت حتى سنة ١٩٣٠ حيث غادر البلاد وتولت الإدارة إلى شقيقي المرحوم سبابا وقد ابتعت للجريدة مطبعة وأعتقد أن الجريدة أدت قسطاً لا بأس به من الواجبات القومية إلا أنها أقفلت في عام ١٩٥٧.

الهبة الشعبية في الرابع من نيسان عام ١٩٢٠

ومن الخطأ كل الخطأ أن يظن أحد أن إسرائيل برزت إلى الوجود في ليل ١٤/٥/١٩٤٨ فإن إسرائيل كانت قائمة فعلاً منذ أن احتلت الجيوش البريطانية فلسطين عام ١٩١٧. وعندما انتدب الجنرال اللنبي الجنرال بولز وبعده الجنرال مونه. ليكون نظاماً عسكرياً لفلسطين. وكشفت الوكالة اليهودية عن وجهها الحقيقي وأخذت تمارس مهمة الدولة فعلياً الأمر الذي حدا بالجنرال بولز أن يكتب إلى الجنرال اللنبي بوجوب حل الوكالة اليهودية التي كسّرت عن أنيابها يوم ١٤/٤/١٩٢٠ وهو يوم مهرجان النبي موسى الذي صادف قدوم وفود من جميع أنحاء فلسطين لتؤم المسجد الأقصى بإعلامها الدينية بينما تلمع سيوفها في أيدي المتظاهرين

وكلهم حماسة وحيوية متحفزة، فيدوي الجو بالأناشيد الدينية والوطنية. وعندما وصل موكب الخليل إلى باب الخليل في القدس حيث كان ألوف من الشباب العرب في استقباله بالهتافات والتكبير والتصفيق الحار ترحيباً به، ومشاركة له في التعبير عن الغليان القومي الهادر ازاء الأحداث الخطيرة الذي كان يغمر النفوس توهجاً بعد إعلان وعد بلفور المنشؤوم. حيث كانت القدس تعج بالجنود البريطانيين. وتنمرت الغطرسة الصهيونية وأصبحت تتصرف وكأنها هي الحكومة المسيطرة على مقدرات البلاد. في الوقت الذي كان العرب فيه، ينادون بسوريا الكبرى وكان مؤتمر سان ريمو قريب الانعقاد لتوزيع المسلوبات والغنائم، كما كان لسان العالم العربي يومذاك يجاهر بهتافه الراعد. لا حماية ولا وصاية. وبينما كانت المواقب العربية المتحمسة متوجهة إلى المسجد الأقصى، تقدم شاب يهودي وبصق على أعلامهم الدينية، فانفجر البركان لهيباً عاصفاً فكان ذلك بمثابة الشرارة الأولى لثورة جامحة مزلزلة، استمرت أسبوعاً كاملاً قتل في أثنائها سبعة من اليهود و ٢٠٠ جريح، وقتل من العرب خمسة أشخاص و ٢٥ جريحاً.

استدعاء هيئة تحقيق من مصر

استدعت لجنة تحقيق بريطانية من مصر للتحقيق في أسباب هذه الثورة وفي الوقت نفسه ألفت محكمة عسكرية خاصة لمحاكمة الموقوفين بتهمة الاشتراك في هذه الثورة. وكان من بين المتهمين الإرهابي الصهيوني جابوتنسكي الذي كان متولياً أمر جيش الهاجاناه في نشأته وتدريبه عسكرياً في الخفاء. بينما كانت السلطة البريطانية ملمة بتفاصيل هذه المؤسسة العسكرية التي كانت تزودها سراً بالسلاح بحجة الدفاع عن النفس. وقد وقع أثناء محاكمة جابوتنسكي حادث خطير استدعى انتباه اللجنة الملكية التي ذكرت في تقريرها عام ١٩٣٧ حرفياً: كان لليهود في فلسطين دائرة استخبارات بالغة النشاط والحيوية والدقة والتنظيم. بحيث كان من الصعب على الحكومة المنتدبة أن تحمي أسرارها من السرقة لوجود مئات من الموظفين اليهود الصهاينة، في معظم الدوائر الرئيسية ذات الشأن، وكان المقصود بهذه الإشارة جابوتنسكي بالذات إذ أبرز أثناء محاكمته أمام لجنة التحقيق البريطانية نسخة من شيفرة سرية في غاية الخطورة مسروقة من صندوق الحكومة، ولم يعرف قط محتويات تلك الشيفرة، غير أن أعضاء المحكمة كتموا فحواها ولم يشيروا إلى أي كلمة بصدها في تقريرهم النهائي. وكان جابوتنسكي يهزأ بالقضاة أثناء استجوابه قائلاً: مهما حكمتهم علي فإن حكمكم مؤقت وسيلغى حتماً. وقد أدانته المحكمة بالسجن وبالاشغال الشاقة لمدة خمسة عشرة سنة ولم يمض زمن قليل حتى خفض الحكم إلى سنتين وبعد مدة أقل صح ما كان يقوله جابوتنسكي إذ استطاع النفوذ الصهيوني العالمي أن يلغي ذلك الحكم، ومن المضحك أن وايزمان يقول في مذكراته عن هذا العفو ما يلي: ان جابوتنسكي لم يقبل العفو عنه إذ وضع والمتهمين العرب في مستوى واحد. والحقيقة أن وايزمان بذل جهداً كبيراً لدى المندوب السامي الصهيوني هربرت صمويل لإصدار العفو عن ذلك المجرم السفاح إلا أن العجرفة هي الخلفية المشهورة في الصهاينة.

نبوة بزوال إسرائيل

روى لي صديقي المغفور له عوني عبد الهادي يوم كان سكرتيراً خاصاً للمغفور له جلالة الملك فيصل الأول. أن لويد جورج دعا جلالة الملك فيصل الأول إلى مأدبة عشاء ودعا معه «حاييم وايزمان» رئيس الحركة الصهيونية وذلك عام ١٩٢٠ وما كان من وايزمان إلا أن سيطر على نفسه. وعلى عصبية العنصرية الجامحة. فأخذ يشيد بما عرف عن العرب من كرم وأباء وقال: لقد قرأت كثيراً عن كرم العرب وأخلاقهم وتقاليدهم ولكن لم أدرك مقدار هذا الكرم حق قدره. إلا بعد أن أعاد لنا عرب فلسطين أراضينا التي استعملوا قروناً طويلة بأثمان بخسة. فامتعض جلالة الملك فيصل ورد بحكم الوثائق بنفسه قائلاً: ظننت عندما بدأ وايزمان في الثناء على أخلاق العرب وكرمهم وآبائهم ظننت أنه سيذكر وفاء العرب الخلقى إزاء الجماهير اليهودية التي هربت من معظم أقطارها في أوروبا التي أعملت السيف في رقابهم ورقاب ذويهم. فوفدوا إلى البلاد العربية حيث فتح العرب لهم صدورهم وأووهم واعتبروهم كمواطنين لهم مالهم وعليهم ما عليهم. أما وقد أراد وايزمان أن يشير إلى هدف تعصبه العنصري الهادف إلى اقتلاع الشعب العربي الفلسطيني من وطن آبائه وأجداده فأني وإن كنت من بيت النبوة - ولكن لا أدعيها - غير أنني أفترض أن أموال اليهود التي جمعت بالوسائل المعروفة قد تمكن زعماء الصهاينة من الاستيلاء على فلسطين بعد اقتلاع أهلها الأصليين من ديارهم. وقد يصيرون بواسطة تلك الأموال. الصحراء والطرق. جنات وعمارات شاهقة. ولكن إرادة الحق التي تمكن بها صلاح الدين من طرد الصليبيين بعد أن مكثوا نحواً من جيل وحدها التي ستعيد فلسطين العربية إلى أهلها طالما اشتملت على مهد المسيح وقبره وطالما اشتملت على أولى القبلتين وثالث الحرمين ولن يكون في مقدور أية قوة في العالم أن تزيل المسيحية والإسلام حتى اليوم الموعود يوم النصر والخلود.

الخلاف بين البطريرك برسلينا والفرنسيسكان

بالرغم من أن البطريركية اللاتينية ورهبة الفرنسيسكان في فلسطين يخضعان للكرسي البابوي إلا أن هناك منافسة إدارية روحية بين الفريقين. فبينما يمارس الفرنسيسكان مهمة المراسيم الدينية لطائفة اللاتين في بيت لحم ولا صلاحية إطلاقاً للبطريركية على لاتين بيت لحم. الأمر الذي دفع البطريرك برسلينا لأصدار أمر. يعتبر السكان اللاتين من سكان المنطقة الغربية لبيت لحم والتي تبتدئ من قبة راحيل حتى الكيلو «١٠» من طريق بيت لحم الخليل. أنهم تابعون للبطريركية وأنهم مجبورون أن يعمدوا ويكفلوا أولادهم في كنيسة البطريركية التابعة لبيت جالا وكذلك تجنيز الأموات. وعلى هذا نشب صراع علني بين الفئتين.

وكانت النخبة المختارة من زعماء ووجهاء طائفة اللاتين تسكن المنطقة الغربية المشار إليها. فتألفت لجنة من نخبة رجالات بيت لحم وانتخبت سكرتيراً لها للدفاع عن حق بيت لحم في تلك المنطقة. وكاد قرار البطريك المشار إليه أن يُحدث أزمة عنيفة بين بيت لحم وبيت جالا برغم أن جميع العمارات الفخمة القائمة في تلك المنطقة شيدت بالترخيص من بلدية بيت لحم. بالرغم من وجودها ضمن منطقة تنظيم بلدية بيت لحم. ولما شعرت الحكومة بأن هذا الخلاف قد يؤدي إلى عواقب غير حميدة بين أهالي بيت لحم وبيت جالا ألفت لجنة عهدت إليها بدراسة الوضع وإعطاء قرار نهائي حسماً لكل خلاف.

أما المنطقة بالذات فهي واقعة في سفح جبل يبدأ رأسه من عمارة كلية الفرير وينتهي في سيل وادي جريوس. ولحل الخلاف القائم دعونا اللجنة الحكومية على غداء في دير الطنطور وبعد الغداء طلبت إليهم أن يصعدوا على سطح الدير ليروا بأم أعينهم الوضع الطبيعي للمنطقة وأُشترت إلى الجبل الذي يبدأ من كلية الفرير وينتهي في وادي جريوس الذي يعتبر الحد الفاصل الطبيعي بين البلدين وكان لدينا حجة تاريخية أخرى وهي: عندما كان يتزوج شاب تلحمني بفتاة من بيت جالا ولما كان أهالي بيت جالا يعتبرون «قيسية» وسكان بيت لحم «يمانية». فكانت الفتاة العروس تجلج بغلالة حمراء وهي إشارة قيس إلى أن تصل واد جريوس ويستلمها أهل العريس التلاحمة فيغطي وجهها بغلالة بيضاء وهي إشارة اليمين. على اعتبار أن الوادي المذكور هو الفاصل الطبيعي بين البلدين الشقيقتين وكان شارع المنطقة المذكورة مضاء بالكهرباء من قبل بلدية بيت لحم ما أقنع اللجنة بأن الواجهة للمنطقة جزء من بيت لحم وبذلك سويت المشكلة وانضم إلينا الخوري أنطون وأصبح لنا حليفاً وصديقاً إذ توافقت مصلحة الفرنسيين مع مصلحة بيت لحم وهكذا وتضافرت الجهود بين بيت لحم وبيت جالا الشقيقتين اللتين لن تنفصلا أبد الدهر بإذن الله.

حسن خالد باشا أبو الهدى

معروف أن فخامة المرحوم حسن خالد باشا أبو الهدى هو جُل الشيخ المشهور أبو الهدى الصيادي الذي عاش في قصر الخليفة السلطان عبد الحميد وأنه كان شيخاً له علم بالغيبات وهي التي أوصلته إلى ذاك المركز الكبير وقد ترعرع جُلّه حسن خالد في القصر الملكي وأرسل مندوباً عن الخليفة في عام ١٩١٥ إلى الإمام يحيى ملك اليمن وعندما أسس المغفور له الملك عبد الله إمارة الأردن كان المغفور له حسن خالد أبو الهدى من النخبة المفضلة لجلالته ثم عهدت إليه أكثر من مرة رئاسة الوزارة وأذكر على الأغلب أن ذلك كان في عام ١٩٢٣-١٩٢٤ أن حصلت أزمة أثارها مع الإنجليز إزاء صلاحيات إمارة شرق الأردن ولم أكن قد عرفته شخصياً ولم أعرف عنه شيئاً إلا أنه جابه الممثل البريطاني بشيء من الشجاعة. فجردت قلبي في جريدتي صوت الشعب دفاعاً عنه ونقداً عنيفاً للممثل البريطاني وبعد مضي أسبوعين كلمني رحمه الله تلفونياً من القدس وألح عليّ أن أقبل دعوته

لتناول الغداء معه في فندق فاست فاعتذرت شاكرًا إلا أنه أبح وقال لي عبارة هزت أعصابي إذ قال أنت تعرفني ولم ترني وأنا لا أكتمك عرفت كثيرين من الكتاب ولكن القليلين منهم. يتصدون بجرأة كجرأتك دفاعاً عن كرامة إدارة عربية. فقبلت دعوته بعد هذا الإطراء وتوطدت بيننا منذ ذلك الحين صداقة متينة وهو الذي عرفني بسمو الخديوي عباس حلمي. وكان متلاًفاً للمال بصورة تفوق حاتم الطائي. يأتي الي القدس في شهر رمضان المبارك. ويقف في باب الخليل وياخذ في توزيع ما في جيوبه من مال حتى الفلس الأخير وكان مسلماً عريق الإيمان متحرراً عصياً لا يقبل أي غمزة مهما كانت. إذا قصد منها أي نقد للإسلام أو للعروبة وكان مخلصاً عميق الإخلاص للعائلة الهاشمية وقد أكرمه المغفور له الملك عبد الله يوم توفي في عمان فدفنه في المقبرة الملكية. رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنات.

الإدعاء بأن المسيح ابن زنى

كتبت جريدة دورها يوم الصهيونية التي كانت ولا تزال تصدر في القدس مقالاً اتهمت السيد المسيح أنه ابن زنى فلما قدم بطريرك اللاتين الدعوى ضد هذه الجريدة فقد حكمت المحكمة عليها بغرامة قدرها خمس جنيهات.

الأراضي المسيحية المقدسة بصقة في وجه إسرائيل

كتبت بعض الصحف العربية. مشيرة إلى وجوب الدفاع عن قداسة الأماكن المسيحية المقدسة وكان ذلك عام ١٩٢٥. وسبب ذلك زيارة شبان وشابات من اليهود مهد المسيح وعندما كانوا في مغارة المهدي أمام النجمة الموجودة في المسقط حيث ولد السيد المسيح. أشار أحد الشبان باستهزاء ماداً رجليه إلى النجمة متسائلاً أهنا ولد المسيح؟ فكان بالصدفة بعض من شبان بيت لحم الوطنيين فهاجموا على ذلك الشاب وأوسعوه ضرباً. وأخرجوه من الكنيسة. وعلى أثر ذلك عقدت اجتماعاً لمثلي بيت لحم. واتفقنا على إعلان منع اليهود من دخول كنيسة بيت لحم بالقوة إذا لزم الأمر. وكتبت في جريدتي صوت الشعب مقالاً عنيفاً حول هذا الموضوع. استدعيت بسببه لحاكم القدس أستورس الذي هدني قائلاً: إن الكنيسة ليست ملك طائفة بعينها ولا ملك بلد معين بل ملك العالم أجمع. فرددت عليه أن سيدنا عمر بن الخطاب عدما دخل القدس وأعطى عهده الشريفه لبطريرك القدس صفرونيوس حرم على اليهود دخول الأماكن المقدسة المسيحية ذلك أن المسيحيين المؤمنين يعتبرون أن الذين

صلبوا المسيح هم أعداء المسيحية إلى أبد الأبد. ونحن مصممون على تنفيذ إرادة إيماننا بالتضحية بأرواحنا إذا لزم الأمر لمنع اليهود من تدنيس أماكننا المقدسة والسخرية منها . وسنخطر العالم المسيحي برمته بقرارنا كما أننا واثقون أن العالم الإسلامي الذي يعتبر السيد المسيح من روح الله ويعتبر مهده مقدساً مسيحياً وإسلامياً وعربياً. سيقفون إلى جانبنا دفاعاً عن هذا الحق المقدس. وعلى أثر هذه الحادثة صرح دزكوف وكان رئيساً لبلدية تل أبيب قائلاً: إن الأماكن الدينية المسيحية هي بصقة في وجه إسرائيل. وبالرغم من معارضة الحكومة المنتدبة. درجنا على إقامة حفلات التأيين لشهادتنا العرب في كندرائية المهدي في كل مناسبة ولم نعر أي اهتمام لإنذارات الحكومة وتهديداتها. واستمررتنا في دعوة مشايخ المسلمين لحضور الصلوات عن أرواح الشهداء وسماع تأبينهم من فوق قوس المهدي الشريف.

لجنة الدفاع عن المغتربين العرب

نصت معاهدة فرساي على حق المواطنين الذين سلخت بلادهم عن المملكة العثمانية في اختيار الجنسية العثمانية أو جنسية جديدة للقطر الذي يعيش فيه المواطن الذي كان سابقاً يعتبر عثماني الجنسية. غير أن الحكومة المنتدبة التي كانت تمهد لتحقيق إنشاء الوطن القومي لليهود. تحت ضغط الصهيونية العالمية. وقد سنت قانوناً للجنسية اعتبرت المغتربين العرب وعددهم يزيد عن مئة ألف مهاجر. غير مشمولين بالجنسية الفلسطينية الجديدة. في الوقت الذي وقعت فيه ثورة عام ١٩٢٥ في جمهورية هندوراس . نهب الثوار متاجر وبيوت الكثيرين من المغتربين الفلسطينيين. وعلى أثر الغبن الفاحش الذي تعمدته الإدارة المنتدبة بحق المغتربين الفلسطينيين العرب تألفت لجنة ضمت نخبة من أهالي بيت لحم وبيت جالا. حيث انتخبت سكرتيراً لها. قامت بجهود جبارة أجبرت الحكومة بعد عراق وحوار مريرين أن تعترف بحق كل مغترب فلسطيني بالجنسية الفلسطينية إذا أثبت أنه مولود من أبوين فلسطينيين في حين أن أبواب البلاد كانت مفتوحة لشذاذ الأفاق أن يدخلوها بالألوف بشهادة من الوكالة اليهودية التي كانت تمارس مهمة الدولة الفعلية إلى أن خلقت إسرائيل عام ١٩٤٨.

ثورة ١٩٢٩

قام اليهود بمظاهرة كبيرة في القدس. توجهت إلى حائط المبكى وهم يحملون الأعلام اليهودية وينشدون النشيد الوطني اليهودي وعلت أصواتهم بالهتاف قائلين: «الحائط ملكنا» فعقدت اللجنة التنفيذية العربية اجتماعاً طارئاً وأعلن المغفور له

كاظم باشا الحسيني أن وفدا من اللجنة يجب أن يزور حائط البراق فوراً ويعلن أن هذا الحائط هو جزء من الجامع الأقصى وقال أرجو أن يتقدم تطوعاً من يريد أن يكون واحداً من هذا الوفد فتقدم كل من المرحومين عوني عبد الهدى. ومغتم مغتم. وعمر الصالح البرغوثي. وعيسى البندك. وعندما وصلنا إلى الحائط المشار إليه كان ألوف من اليهود في هيجان وصراخ ولكنهم قد تبعثروا وأفسحوا لنا المجال وأعلنا بصوت واحد أن هذا الحائط هو جزء لا يتجزأ من الجامع الأقصى الذي بارك الله حوله وبعد أن مكثنا قرابة عشرين دقيقة عدنا إلى قاعة اللجنة التنفيذية فقبلنا بالتصفيق والهتاف وروينا لزملائنا ما حصل.

مع المغفور له الأمير عادل أرسلان إلى أميركا

انتدبت والمغفور له الأمير عادل أرسلان أمير السيف والقلم للسفر إلى الولايات المتحدة وأميركا الجنوبية من قبل لجنة الإعانات التي كان يرأسها المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي الديار الفلسطينية. وكان ذلك عام ١٩٢٩. ولما كنا في القاهرة دعانا المجاهد المصري المشهور عزيز المصري، إلى مأدبة غداء حضرها نخبة من العلماء والأدباء والزعماء من سوريين ومصريين وكان بينهم العلامة الكبير الإمام الشيخ رشيد رضا الذي تفضل بعد انتهاء مأدبة الغداء وكانت في يوم أحد. فدعانا إلى مأدبة ليوم الجمعة القادم. وكنت ألتقي بعطوفة الأمير عادل كل يوم مرتين وأذكر أنني اجتمعت به رحمه الله صبيحة يوم خميس أي قبيل موعد الدعوة لمأدبة الغداء في دار المغفور له الشيخ الإمام رشيد رضا: فقال لي رحمه الله سنذهب في تمام الساعة الواحدة والنصف من يوم السبت للغداء عند الشيخ رشيد رضا فقلت له: أذكر أن فضيلة الشيخ دعانا إلى الغداء وحدد يوم الجمعة كما أذكر. فنظر إلى باستهجان وقال: إنك ضعيف الذاكرة فالرجل دعانا إلى الغداء يوم السبت لا ظهر يوم الجمعة. وعبثاً حاولت أن أفنعه أن الدعوة ليوم الجمعة واقترحت أن نتصل بفضيلته تلفونياً للتأكد من يوم الدعوة وكان الإمام رحمه الله. قد وجه دعوات لنخبة من الزعماء والأدباء والعلماء في الوقت ذاته. فضحك وقال لي: فعلاً إنك ضعيف الذاكرة فأجبتته أرجو أن يكون ذلك.

وفي الساعة الواحدة والنصف من يوم السبت توجهنا إلى بيت الإمام رشيد رضا ولدى وصولنا قرعنا الجرس. ففتح لنا الخادم وسألنا باستغراب: ماذا تريدون؟ فرد عليه المرحوم الأمير عادل قائلاً: نحن آتون بدعوة من قبل فضيلة الشيخ الإمام لتناول الغداء فرحب بنا الخادم وأدخلنا إلى صالون مظلم. وبعد دقائق دخل علينا الشيخ عابس الوجه. وعلى رأسه طاقيّة ولم يرحب بنا ولم ينبس بأي كلمة. مما أثار حفيظتي وأهاج أعصابي وقررت في دخيلتي ألا أدوق طعام. وبعد برهة قصيرة دعانا إلى مائدة الطعام حيث كان عليها ديك رومي. في صحن صيني كبير. فابتدأ رحمه الله قبل أن يدعو أحداً منا لسكب الطعام في الصحن بتناول شرائح الديك. فأخذ المرحوم الأمير عادل أيضاً ما أراد من تلك الشرائح. وأما أنا فلم أمدّ يدي إلى طعام رجل عابس وأبت نفسي

علي أن أكون ضيفاً على رجل مقفل على نفسه. وبعد انتهاء الطعام سكتت القهوة فلم أذقها وقاربت الساعة على الرابعة وأحسست بدوار في رأسي من الغيظ والجوع. ثم نهضنا وودعناه دون أن يعتب علينا لسهوتنا عن يوم الدعوة التي بسببها قابلنا بذاك العبوس الذي تأباه التقاليد العربية والخلق النبيل. فخرجنا من بيته وأراد المرحوم الأمير عادل أن نعود إلى الأوتيل مشياً على الأقدام فاعتذرت وقلت له: لا أستطيع السير دقيقة واحدة، فإني جوعان غاية الجوع وأريد أن أصل إلى الأوتيل بالسرعة الممكنة وقلت للأمير رحمه الله، لا شك أن الإمام رحمه الله قابلنا بجفاء كان رد فعل لعدم تلبيتنا دعوته في اليوم المعين. ولكن كان يجب أن يعاتبنا وكنا سنعتذر وقد وقع العقاب علي وحدي إذ لم تقبل نفسي أن أتلمظ طعاماً على مائدة وجه عبوس وتذكرت قول المتنبي:

إذا بذل الإنسان لي جود عباس
جزيت بجود التارك المبتسم

الملك حسين بن عون شهيد العرب الأكبر

كنت ولا أزال أضرع أعمق تقديس للشهيد العربي الأكبر المغفور له جلالة الملك حسين بن عون الأول الذي بعد أن أطلق الرصاص الأولى زغرودة الوحدة العربية الشاملة، التي كانت بمثابة شمس التوعية الثورية للأمة العربية جمعاء والتي مهدت النصر المحجل للحلفاء في الحرب العالمية الأولى يوم تدافع أحرار العرب من كل صوب بحماسة لاهبة وإيمان عميق، تلبية لنداء تلك الزغرودة الصادحة، ثقة بالعهد الذي قطعه بريطانيا لجلالة المغفور له الملك حسين الأول والذي تعترف بريطانيا بحق العرب بالاستقلال في فلسطين وذلك في رسالة هنري مكماهون إلى الشريف حسين في كتاب رسمي مؤرخ في ٢٤ تشرين الأول ١٩١٥. وفي ١٦ أيار ١٩١٦ عقدت الحكومتان البريطانية والفرنسية أثناء ذلك اتفاقاً سرياً مناقضاً للعهد المقطوع للمغفور له جلالة الملك حسين والمعروف باتفاقية «سايكس بيكو» اللتان اتفقتا بموجبها على إقتسام مناطق النفوذ في الشرق الأوسط. وعلى تدويل الجزء الأكبر من فلسطين وسيطرة بريطانيا على مرفأى حيفا وعكا.

ولما زار جلالة المغفور له الملك حسين عمان عام «١٩١٩» هرعت الوفود من جميع الأقطار العربية للتبرك بلثم أنامله الطاهرة والاطلاع على ما وصلت مفاوضاته مع حليفته بريطانيا العظمى وقد كان رحمه الله، مطمئناً إلى الخليفة بتنفيذ ما قطعه لجلالته من عهد. وكان بين أعضاء الوفود التي تشرفت بلثم أنامله الطاهرة المغفور له الزعيم العربي الكبير رياض الصلح والزعيم العربي المجاهد المغفور له شكري القوتلي. وكان الزعيم رياض الصلح يفكر في إصدار جريدة كبرى في القاهرة بإسم «الجامعة العربية» فشرح لجلالته فوائد الإعلام للقضايا العربية والحاجة إلى مبلغ معين من المال لإصدار تلك الجريدة، فكان رد جلالته رحمه

الله بما يلي: إذا كنتم تقصدون من تأسيس الجريدة مجرد الدعاية فأنا أفضل أن أزدكم بالأموال اللازمة لتأليف فرق للجهاد وعندئذ فإن كل رصاصة تطلقونها وتقتلون بها عدواً لأمتنا ستنطق صحف العالم بأجمعها بالدعاية للعالم العربي وقضاياها. وتألفت بعد ذلك فرق في سوريا كانت النواة للثورة السورية التي اندلعت عام ١٩٢٥ والتي كانت مفتاح الاستقلال للمقطر السوري المجاهد.

وما يجدر بكل عربي إدراكه تاريخياً أن بريطانيا عندما شعرت أن المغفور له جلالة الملك حسين الأول لن يتنازل إطلاقاً عن أي جزء من حق العرب في استقلال فلسطين قررت عزله ونزح إلى معان ومن معان إلى أسره في قبرص كما حدث لملك إشبيلية المعتمد بن عباد حيث أسر مقيداً بالسلاسل إلى أغمات حيث مات ولم يمت ذكره وجهاده وأدبه الرفيع شعراً ونثراً رحمه الله رحمة واسعة.

وقد جردت قلبي المتواضع طيلة أسره في قبرص للدفاع عن جهوده وتضحيته بعرشه في سبيل فلسطين وما يحزن أن كثيرين من غمرهم رحمه الله بفضلهم قد تنكروا لمصابه الأليم . وكأنهم كانوا أعداء شامتين وقد أعاده الإنكليز إلى القدس عندما شعروا أنه في أواخر أيامه وقد زرتة بحضور مجله المغفور له الملك عبد الله فقال لي: أوصيك أن تواصل جهادك كما عازمت أن تكون ثابتاً صدوقاً وحذر قومك من خيانة الإنكليز وعملائهم وأهداني رحمه الله قطعة ذهبية من الدنانير التي كانت نموذجاً لعملة الدولة العربية الكبرى، وهي عندي أكبر وسام وأخلد تزكية وتقدير وكان رحمه الله يوافيني برسائل مطولة بخط يده الطاهرة من قبرص عسى يتاح لي نشرها والتعليق على فحواها الغزير بالروح القومية الحية. رحمه الله رحمة واسعة وإن ذكره استظل خالدة في تاريخ الوجود العربي إلى الأبد.

ولما كنت أستوحي ضميري دوماً فيما أحلل من انطباعات. فإن أبغض شيء إلى نفسي الرياء الزائف أو التملق الرخيص لذلك أرجح أن ظروفاً قاسية واجهت الملك حسين وهزت نفسه هزاً عنيفاً يوم تعرضت العائلة المالكة في العراق. وهي أهل جلالته الملك وعشيرته. إلى مصير سبق أن تعرض له الشهيدان الخالدان الحسن والحسين وألهما ظلماً وعدواناً . وليس القدر ظلماً وإبادة وإنما القدر ترويض النفس على موادعة الظروف إلى أن يلبس القدر ثوبه النظيف. وما لا شك فيه أن حق الدفاع عن النفس. هو حق مشروع كفلته كل القوانين والأعراف الدولية . ويتيح للمرء اتخاذ الحيطة لما يوجس منه خطراً. وكثيراً ما ينشط المفسدون في ظروف معينة. يستغلونها. فيجعلوا من شريعة الدفاع عن النفس وسيلة انتقام مرجل يعقبه بعد مرور الزمن الندم الذي يعتبر رديفاً للتوبة والله يغفر الذنب ويقبل الثواب. ولست أشك إطلاقاً أن الأحداث صقلت نفسية جلالته وأكسبته فوق الخبرة صفة الاعتماد على النفس لأنها المدخل إلى الاعتماد على الله عز وجل.

الشباب ثورة. وليست الثورة هنا انتفاضةً أو انفجاراً أو فوضى. بل هي تطور للصعود إلى فوق الواقع. ولو قدر لأي إنسان. أن يحلل الرموز النفسية الباطنية الكامنة في أعماق جلالته الملك حسين. لاكتشف صورة من الشموخ الذاتي ورثها من نسبه العريق. إن

إطلاقات مضيئة من عظمة الانطلاق العربي الإسلامي، والتي أحدثتها رسالة التوحيد المحمدية التي هزت الكون بأسره. فخلقت فلسفة روحية عميقة الجذور من شأنها أن تبعث من قرارة ملك تسلّم العرش في عنفوان الشباب طموحاً عارماً أكبر حدّاً من الأحلام، وأجمل صورة من الخيال. ولعل جميع هذه المزايا تزيد المواهب الطبيعية في الإنسان إشعاعاً حيويّاً غزيراً. فإن جاءته ظروف طبيعية يصح معها هذا الإنسان صانعاً للتاريخ، ومبدعاً لمخطط تسمو أهدافه وتظهر قوة تصورات الأمانى والآمال.

وسوسة بين المغفور له كاظم باشا الحسيني وسماحة الحاج أمين الحسيني

طلبت الحكومة البريطانية أن يتوجه إليها وفد يمثل عرب فلسطين عقب ثورة عام ١٩٢٩ وكانت اللجنة التنفيذية العربية بمثابة البرلمان الذي يمثل الشعب الفلسطيني فعقدت اجتماعاً برئاسة المرحوم يعقوب فرّاج نائب رئيس اللجنة التنفيذية وذلك لأن المغفور له كاظم باشا الحسيني كان مريضاً ويقضي فترة نقاهة في منزله في أريحا. فعندما فتحت الجلسة وقف المرحوم السيد عمر الصالح البرغوثي وهو من صف المعارضة للمغفور له سماحة الحاج أمين. وقال: إن الحاج أمين قد فتح القلعة ولا يجوز أن يترأس الوفد غيره بعد أن أصبح الزعيم العالمي الأول لفلسطين وأن وجوده على رأس الوفد في لندن له تأثيره الكبير كما أن لشخصيته العظيمة وزناً دولياً سياسياً ذا خطر كبير وتحدث بعده بعض الأعضاء وفي النتيجة وافقت اللجنة التنفيذية بالإجماع في اجتماعها على انتخاب المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني رئيساً للوفد الفلسطيني إلى لندن وقد كاد أن يحدث هذا القرار أزمة داخلية خطيرة إذ سرت وسوسة تقول: إن المغفور له عطفة كاظم باشا هو رئيس اللجنة التنفيذية وهو زعيم البلاد الشعبي ولا يجوز أن يترأس الوفد غيره. وكادت البلاد أن تنقسم على بعضها برغم المحاولات الجدية المتواصلة لتسوية شريفة تزيل ما أحدثه ذلك القرار من توتر وغليان. وكان ذلك في شهر رمضان المبارك. إذ كنت ذات ليلة في قاعة المجلس الإسلامي الأعلى وكان من جملة الحضور المغفور لهما صديقي الحميمين الحاج سعيد الشوا وعبد القادر نسيبه. فطلب إلى المغفور له سماحة الحاج أمين أن أقوم بزيارة المغفور له كاظم باشا في أريحا لعلي أستطيع أن أزيل ما غمر البلاد من توتر وكان سماحته رحمه الله يعلم ما يمكنه لي المغفور له كاظم باشا من عطف ومودة فقلت لسماحته رحمه الله أنني مستعد أن أؤدي هذا الواجب فوراً راجياً أن يتفضل صديقي السيد عبد القادر نسيبه أن يرافقني. فالتفت سماحته إلى السيد عبد القادر وسأله رأيه فقال: أرجو أن يوفقنا الله. فقمنا لساعتنا وتوجهنا إلى أريحا وكانت الساعة حوالي التاسعة مساءً فوصلنا أريحا تقريباً الساعة العاشرة ولما استأذنا بالدخول على غرفة منام المغفور له كاظم باشا قلت لصديقي المرحوم عبد القادر نسيبه سأحاول أن أخترع حيلة بيضاء إذا نجحت نكون قد قضينا على الوسوسة الملقوفة وإذا فشلنا فسأحمل شخصياً وزر هذه الحيلة. فسألني رحمه الله وما هي هذه الحيلة فقلت: سأدعي أن المغفور له سماحة الحاج أمين كلفنا أن نحمل لعطفة عمه الوقور

أصدق الإحترام والتحيات وأن سماحته لن يقبل أن يكون رئيساً للوفد غيرعه عطوفة كاظم باشا. فقال لي صديقي المرحوم عبد القادر. لا يا أبا يوسف هذه ورطة سيكون لها عواقب سيئة فأنت تعلم أن الفريقين مصران كل منهما على موقفه و لذلك لا أنصحك أن تقوم بهذه المغامرة فقلت له: لي عندك رجاء قال: ما هو؟ قلت له: في حال سؤال كاظم باشا هل حقيقة أن ابن عمي كلفكم بذلك؟ أرجو أن تقول لي نعم لأني واثق إذا سألت هذا السؤال معناه أنه سيتنازل لابن عمه صاحب السماحة فنكون دفنا الوسوسة وعدنا منصورين فوعدني بأن يفعل. فعندما دخلنا إلى غرفة نوم المغفور له كاظم باشا كان وحده. وكان له علي - رحمه الله - فضل وحنان وعطف. فسألني؟ في أي جانب أنت يا عيسى؟ فقلت له: أنا أينما يكن ظلك أكن! وقلت لعطوفته: نحن قادمون نحمل لعطوفتك حيات ابن عمك سماحة الحاج أمين الحسيني واحتراماته وطلب إلينا أن نؤكد لعطوفتك أنه لا يقبل أن يتأسس وفد لندن غيرك. فلعطوفتك الآن الأمر. فسأل هل هذا صحيح؟ فالتفتُ إلى صديقي المرحوم عبد القادر نسيبه وقلت لعطوفته هذا صديقي وقريبك عبد القادر يشهد على صحة ما أنيط بنا. عندئذ أكد له السيد المرحوم عبد القادر بك نسيبه. ما رويته. فنهض من سريره وجلس وأمر لنا المرطبات وقال: بلغوا ابن عمي سماحة الحاج أمين أن الوفد إلى لندن لن يرأسه غيره فشكرناه وبعد أن شربنا القهوة عدنا إلى القدس إلى المجلس الإسلامي الأعلى حيث كان المغفور له والرحوم الحاج سعيد الشوا في انتظارنا. فلما دخلنا عليهم كان صديقي المرحوم عبد القادر بك نسيبه. يضحك مسرورا فسألته سماحته رحمه الله وروى له ما حدث وبذلك قضي على وسوسة كادت أن تكون فتنة. وفي اليوم التالي أقام المرحوم راغب بك النشاشيبي مأدبة عشاء كبرى إعلاناً بتبخر الأزمة وعودة المياه إلى مجاريها.

مظاهرة يافا الكبرى عام ١٩٣٣

قررت اللجنة التنفيذية إقامة مظاهرة كبرى بعد صلاة الجمعة في جامع يافا الكبير. وكان لزاماً على كل عضو من أعضاء اللجنة أن يكون في الصف الأول بعد خروج المصلين من الجامع. وقد عقدت اللجنة التنفيذية إجتماعاً في صبيحة ذلك اليوم في دار الزعيم المرحوم عمر البيطار وحصل نقاش حول كيفية سير المظاهرة إذ كان المقصود منها. إعلان استنكار الهجرة اليهودية التي تعني جعل اليهود أكثرية السكان تحقياً لإنشاء الدول اليهودية. فكان هناك رأيان. رأي يقول: أن تتوقف المظاهرة بمجرد أن تتصدى لها القوة العسكرية فيطلب المغفور له كاظم باشا أن تصير مقابلة برئاسة عطوفته مع ممثلين عن اللجنة فيقدم احتجاجاً لحكومة فلسطين بواسطة حاكم يافا. والرأي الثاني أن يتحدى المغفور له كاظم باشا وجميع أعضاء اللجنة تصدي القوة العسكرية وحميلها مسؤولية النتائج التي ستقع فكان رأي المغفور له كاظم باشا ونخبة من الأعضاء الأخذ بالرأي الأول. جنباً لإراقة الدماء حيث كانت القوة العسكرية قد طوقت الشوارع الرئيسية وصوبت المدافع باتجاه الجامع غير أن السيد جمال

الحسيني أصر أن تتحدى اللجنة قوة الجيش وتحمله مسؤولية النتائج وحصل نقاش عنيف حول مؤيدي الرأي الأول ومؤيدي الرأي الثاني ولم يتخذ قرار صريح في الموضوع فخرجت المظاهرة من الجامع وكان المغفور له كاظم باشا وجمال الحسيني ومغنم مغنم. وكنت أنا وعوني عبد الهادي يدا بيد ومن ورائنا الأعضاء ومئات من الجماهير المتحمسة وما أن بدأ سير المظاهرة حتى أخذت الجماهير مصادرة كل ما يقع تحت يدها من مواد حديدية أو خشبية استعداداً للدفاع. وما كاد الموكب يصل إلى دار الحكومة حتى تقدم ضابط بريطاني وطلب من عطوفة كاظم باشا وقف المظاهرة وفي هذه الأثناء أخذ الجمهور يرسل ضجيجاً مرعداً محاولاً اقتحام قوة الجيش. فما كان من الضابط إلا أن احتجز المغفور له كاظم باشا في ناحية؛ محافظة على حياته. بناءً على أمر المندوب السامي وفي لحظات ارتفع أزيز الرصاص دون تفريق لجموع المتظاهرين. فلجأ الكثيرون من أعضاء اللجنة التنفيذية إلى قاعة الجمعية الإسلامية المسيحية. وكان من المقرر أن تعقب مظاهرة الرجال مظاهرة تقوم بها نخبة من سيدات الجالية وعلى رأسها حرم السيد جمال الحسيني. وبينما كنت وصديقي في طريقنا إلى مكتب جريدة فلسطين رأينا سيدة مطروحة على الأرض فأسعفناها إلى أن أوصلناها إلى دار جريدة فلسطين التي كانت بالقرب منا وأظن أن السيدة المذكورة كانت حرم السيد جمال الحسيني إذ كان سرب من الفرسان يهاجمون المتظاهرين دون تفريق بين رجال ونساء بهراواتهم الغليظة. واستمر إطلاق النار والفوضى أكثر من ساعتين وقع خلالها نحو ٣٧ قتيلاً من المتظاهرين وألقي القبض على بعض الزعماء ومنهم المرحوم عوني عبد الهادي. وسيقوا ليلاً إلى القدس وعاد المغفور له كاظم باشا ومعظم أعضاء اللجنة إلى القدس. وفي اليوم التالي انتخب مع المرحوم فخري النشاشيبي للذهاب إلى يافا لتأبين القتلى حيث يدفنون. وقد اعترضنا الجيش أكثر من مرة ليمنعنا من الوصول ولكننا أصررنا على المضي فوصلنا المقبرة وما أن وقفتُ أُوْبِن الشهداء حتى اعترضني ضابط بريطاني وهددني بالقتل إذا استمررت في التأبين وبقينا إلى أن دفن الشهداء وفي المساء عدنا إلى القدس وكانت فلسطين من أدناها إلى أقصاها تشتعل كأنها أتون من نار وهكذا كانت فلسطين تقدم الضحايا على مذبح البطولة دفاعاً عن الوطن المقدس الذي سيقوم لأبطاله الصناديد - يوم ترفرف راية المجد فوق سمائها- تماثيل من ذهب. وهو حلم سيتحقق جزاءً المهرالغالي من الدماء الطاهرة الزكية التي بذلت لأجله.

ضيف جوبلز عام ١٩٣٣

كنت ولا أزال أوْمَن بأن الصهيونية العالمية. جرثومة سرطان مدمرة: هدفها إغراق البشرية في بحر من الدماء عن طريق الفوضى والثورات والدسائس وفي بروتوكولات حكماء إسرائيل الدليل المحسوس على صحة هذه الحقيقة. ولما أخذ هتلر في تحدى أعوانها وتطهر ألمانيا من جرائيمها. كنت دوماً أوْيد أية حركة تهدف إلى إطفاء نيران تلك المؤامرة الشريرة الشرسة وكان لي جار قسيس

ألماني. مدير للمدرسة الألمانية في بيت لحم وكنا من حين إلى آخر نتبادل التحيات العادية وقد زارني في يوم من الأيام وسألني هل أقبل ان أكون ضيفاً على جوبلز وزير الدعاية الألمانية إذا وجهت إلي دعوة؟ فقلت له أرجو إمهالي بضعة أيام لأفكر في الأمر. وقد استشرت بعض أصدقائي المخلصين فشجعوني أن أقبل الدعوة إذا وجهت لي رسمياً. فأخبرت القس المذكور بقبولي الدعوة وفي خلال أسبوع كانت الدعوة جاهزة ذهاباً وإياباً من بيت لحم إلى برلين وكان ذلك في شهر نيسان فغادرت بيت لحم إلى باريس ومنها أخذت القطار صباحاً متوجهاً إلى برلين في نحو الساعة العاشرة ليلاً. وقد رافقني صديقي العزيز إلى المحطة في باريس المرحوم السيد عبد الله الدبدوب. وبعد أن ودّعني وركبت القطار وجدت أن شقة خاصة من الدرجة الأولى محجوزة لي فجلست فيها وأخذ القطار ينساب رويداً إلى أن خرجنا من ضواحي باريس وكان الجو صافياً جميلاً وصارت تراودني أحلام وهواجس كثيرة وكان عمري يومذاك ٣٤ سنة.

وبعد نصف ساعة من سير القطار. استأذن مراقب التذاكر وسألني إن كنت أسمح لسيدة تحمل تذكرة من الدرجة الأولى أن تشاركني شقتي لأنها لم تجد لها مقعداً. وهي واقفة في مر القطار وأنها هي أيضاً مسافرة إلى برلين فقلت له إنني ضيف الحكومة ولا أود أن يوجه لي أي انتقاد بأني أسأت الضيافة فإذا لم يكن هنالك أية ملاحظات بالنسبة لي فلا مانع أن أجلس في مقعد الشقة المحصنة لي. وفيها سعة لأكثر من خمسة مسافرين. فقال لي أظن أن ليس هنالك أي محذور فدعا تلك السيدة فتبوات مقعداً مقابل مقعدي وكانت سيدة على غاية الأناقة والجمال وتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة ممتازة.

وقد ساورتني شكوك كثيرة من جراء هذه المفاجأة. فسألتها عن جنسيتها فقالت لي: أنها بلغارية الجنسية وأرثوذكسية المذهب. ثم سألتها ما إذا كانت من سكان برلين وما مهمتها؟ فقالت لي: إنها كانت زوجة لشخص يهودي اخترع آلة مصارف المطابخ. تفصل الزيوت عن المياه أثناء غسيل أدوات الطبخ والصحون. وأنها متوجهة إلى برلين لتصفية شؤونها العائلية. فإزدادت شكوكي وهواجسي. ولجأت إلى صحف كانت معي أقرأها دون أن أعير وجودها أي اهتمام. وبقينا على هذه الحالة حتى محطة برلين حيث كان في انتظاري شخص من قبل الوزارة عرفته لمجرد مقابلتي له إذ كان قد زار بيت لحم عام ١٩٢٥ مع فرقة من الرياضيين الألمان الذين أكرمهم يوم زيارتهم لبيت لحم واسمه اختمن على ما أذكر وهو الذي عين بعد الحاكم العام لألمانيا الشرقية والذي توفي منذ نحو ثلاثة أو أربعة أعوام وقادني إلى أفخم فندق وتواعدنا أن يأتي في صباح اليوم التالي.

وبالفعل زارني صبيحة اليوم التالي وأخذني إلى وزارة الدعاية حيث قابلت جوبلز الذي أكد لي حسن نوايا حكومته نحو القضية الفلسطينية واستعدادها لدعم العاملين ضد الصهيونية العالمية كما شجعتني على الاستمرار على خطتي المعروفة. ومكثت المقابلة نحو نصف ساعة وعندما انتهت المقابلة قال لي سيكون أختمن مرافقك طوال مدة إقامتك وسيطلعك على متاحفنا ومصانعنا وعلى ما تريد الوقوف عليه وبالفعل كان هذا الشخص لا يفارقني إلا بعد منتصف الليل ومكثت في برلين نحو

عشرين يوماً، وأما نظافة برلين فحدث عنها ولا حرج فلا لندن ولا باريس ولا روما تقاس بها إطلاقاً. ثم عدت بالقطار إلى باريس ومنها إلى بيت لحم وقد لفت نظري يومئذ أن كانت المظاهرات العسكرية خصوصاً من الإناث بشكل يلفت النظر.

إنتخابي رئيساً لبلدية بيت لحم ١٩٣٤ وبعض إشكاليات المنصب

لم أفكر قط أن أصبح يوماً رئيساً لبلدية بيت لحم إذ كنت أعتقد أنها وظيفة وجاهة مذهبية ولا تليق إلا لمن تجاوز سن الخمسين على أن يكون من الأغنياء إذ لا راتب لرئيس بلدية بيت لحم. فكانت أول انتخابات لبلدية بيت لحم عام ١٩٣٤ فأصر كثيرون من أصدقائي الشباب وبعض الوجهاء أن أرشح نفسي لتلك الانتخابات وكانت حجتهم أن مدينة بيت لحم مدينة عالمية يزورها نخبة من أولي الشأن من الشرق والغرب وأنها جديرة أن يكون على رأسها شخص مثقف يتقن اللغات الأجنبية فيضفي على سمعتها ظلاً من الهيبة والوقار والنفوذ. وأخيراً قنعت بالطرح وألّفنا لائحة بعدد الأعضاء الذين سيرافقوني واخترنا واحداً من كل حمولة ما عدا حمولة الفراحية التي تعد أكبر عدداً من أية حمولة أخرى. فرشّنا لها شخصين وكانت هنالك لائحة ثانية معارضة لللائحتنا مدعومة بنفوذ مالي لا نملكه فدخلنا المعركة وفازت لائحتنا فوزاً باهراً ثم أخذ التنافس يبرز على أشده من سيكون الرئيس؟ فاقترحت الحكومة أن يترك ذلك للأعضاء فمن يحوز الأكثرية يصبح رئيساً تؤيد تعيينه الحكومة فانتخبت من قبل أكثرية الأعضاء وعينت رسمياً من المندوب السامي رئيساً لبلدية بيت لحم وكنت أصغر سناً من جميع زملائي المحترمين أعضاء المجلس. وقد حرصت أن أحدث تقليداً جديداً منظماً لأعمال المجلس فاقترحت أن تعين لجان منها لجنة للطرق. وأخرى للأبنية. وأخرى للتنوير. وأخرى للنظافة العامة. وعلى أن تؤلف كل لجنة من عضوين ومهندس البلدية وبعد أن فازت لائحتنا بثقة الناخبين اقترحت على إخواني أن ليس هنالك فائزون كما ليس هنالك فاشلون. إذ كنا كلا الفريقين نتنافس على خدمة بلد لا بقصد التفرقة والخصام بل من أجل العطاء والبناء ولذلك يجب علينا نحن الفائزون أن نزور إخواننا الذين خسروا المعركة ونطلب إليهم توحيد الكلمة ودعمنا بمشورتهم وخبرتهم. وبالفعل قمنا بزيارة إخواننا الذين خسروا المعركة وكان لهذه اللفتة أثرها الكبير لدى الرأي العام الداخلي. وحصل أن تقدمت سيدة اسمها حنة عفانة بطلب لفتح مدخل لدار قديمة تملكها في حي من أحياء بيت لحم فحول الطلب إلى لجنة الأبنية وبعد أن زارت هذه اللجنة المكان قررت عدم السماح للمستدعية بفتح ذلك المدخل. وتم الاتفاق على أن أي قرار لأية لجنة يجب أن يعرض على المجلس فإما أن يقره أو يرفضه أو يدخل عليه بعض الملاحظات. فعرض قرار تلك اللجنة على المجلس في جلسته الرسمية فوافق على قرار اللجنة وبلّغت السيدة بذلك وانتهى الأمر إلى هنا. وكان لي صديقان اعتقدت أنهما وفيان وأحدهم كان عضواً في المجلس البلدي وفي يوم من الأيام بعد أن أنهيت عملي في المجلس البلدي وكانت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر. كان ذلك العضو موجوداً معي في المجلس فخرجنا سوياً ولما كان بيتي يقع

قبل بيته دعوته للغداء بإصرار فقبل فلما دخلنا البيت تقدمت الصانعة وقالت أن السيدة عفانة مرت صباحاً وتركت هذا الظرف ليسلم إلى مهندس البلدية في الحال وأمام ذلك الصديق فتحت الغلاف فوجدت داخله جنيهين اثنين. فاستدعيت تلفونياً ضابط بوليس بيت لحم الذي حضر فوراً وسلمته الكتاب وما في داخله وألححت عليه أن يحقق في هذه القضية كما استدعيت السيدة نفسها بحضور صديقي المشار إليه وسألتهما هذا البيت ليس بيت المهندس ومن أمرك أن تجعل بيتي إدارة بريد فأخذت تبكي وتقول المهندس رفض طلبي وأنا أحاول أن يسمح لي بفتح المدخل وأخيراً حضر ضابط البوليس وأخذ إفادة السيدة وقلت لها: لا المهندس ولا رئيس البلدية يستطيع أي منهما أن يسمح لك بفتح المدخل إلا بقرار اللجنة مؤيداً من المجلس ولكن ما أفهمه أن هنالك سرا سأطلب من ضابط البوليس ملاحقته للكشف عن الحقيقة.

وفي اليوم التالي أطلعت المجلس على ما حدث وظن بعض الأعضاء - والظن إثم - أن يكون المهندس قد طلب من السيدة المذكورة رشوة فقلت له: أنت تعلم أن المهندس لا يملك حق إعطاء أية رخصة بدون قرار المجلس وظننت أن الأمر إما لاجحة من المرأة أو مدفوعة من بعض المفسدين لتشويه سمعة المجلس. وأراني إحتراماً للأموال ولأولادهم ألا أذكر أسماء. فلم تمض مدة شهر حتى بلّغت وامراتي من قبل النائب العام البريطاني أن هنالك دعوى علينا بتهمة الرشوة من السيدة المذكورة. فما أن ذاع الخبر حتى تبرع أكبر وأقدر المحامين للدفاع عنا وعلى رأسهم المرحومان عوني بك عبد الهادي، وجورج صلاح، فانعقدت المحكمة البدائية وكانت مكتظة بمئات من الأنصار وبعد سماع الشهادات الكاذبة والادعاءات المغرضة قررت المحكمة بالإجماع البراءة محذرة السيدة عقيلتي ألا تقبل في بيتها ولا على مائدتها مثل هذا النوع من النساء. وكانت المحكمة مؤلفة من أربعة قضاة ثلاثة إنكليز وواحد عربي. أما الحقيقة وراء هذه المؤامرة، فقد دبرها بعض سماسرة الأراضي لليهود ولا يعلم بالحقيقة إلا الله. وكان من الحزن عندما صدر القرار أن يتدافع المتآمرون وهم خارجون من المحكمة هرباً وخزياً، وما أن حل المساء حتى هرعن الجماهير بالمشاعل والزغاريد والأناشيد بمظاهرات صاخبة ضد الأندال استمرت طوال الليل وعفا الله عن صفاء النفوس وقد رددت على المؤامرة بخدمات أنقذت بها أرواحاً من المشانق والسجون والله يشهد وهو خبير معين وقد ثبت فيما بعد أن أصعباً صهيونياً خفياً كان وراء هذه المكيدة اللئيمة.

المستر دونقل رئيس مختبرات الطيران

في شهر آذار من عام ١٩٣٤ دعاني صديقي المغفور له حسن خالد باشا أبو الهدى إلى تناول الغذاء في مطعم الملك داود في القدس ففي الموعد المعين كنت في المقصف حيث تواعدنا أن نلتقي وبعد أن تبادلنا التحية قال لي:

«سأعرفك على شخصية إنكليزية مهمة قد تنيرك جداً وهو شخص يضر للعرب صداقة عميقة ويحسن التكلم باللغة العربية وأرجح أنه سيفيد قضيتكم. فقلت له: لست شخصاً من أولئك الذين يتنكرون للتعرف على كبار موظفي الانكليز ولكن أعتقد أنهم جميعاً خاضعون لتنفيذ مخطط لندن وهو مخطط ضد وجودنا وضد وطننا فقال لي: قد يكون ذلك صحيحاً ولكن تعرفك عليه قد يفيد فهو رئيس استخبارات الطيران ولديه معلومات كثيرة ومهمة فقلت له: وهنا يكمن الخطر الكبير على سمعتي أمام الرأي العام إذ سأعتبر أنني جاسوس وهذا كاف ليتمحو كل ما لي من رصيد مهما كان ضئيلاً فقال لي: أنت غير ملزم أن تلازمه ولا ملزم أن تجتمع به فهذه مأدبة غداء وإن شعرت بعد تبادل الحديث معه أن فائدة قد تكون من التعارف به. لا بأس أن يستمر بينكما اللقاء وإلا فكل واحد في داره. وبينما نحن في هذا الحوار قدم شاب أحمر الوجه حياناً وجلسنا في المقصف نتناول الويسكي وكنت أثناء هذه الفترة ساكناً أترفس في وجهه وأستمع إلى حديثه الذي لم يتطرق إطلاقاً إلى أي موضوع سياسي وقد انتهت المأدبة نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ودعا الباشا ودعاني إلى عشاء في بيته ليلة الأحد القادم فقبلت الدعوة».

كنا في بيت دونفل مع صديقي المرحوم حسن خالد باشا حوالي الساعة الثامنة والنصف مساءً ويقع بيته في الطالبة في شقة مفروشة بالرياش العربي العراقي ومضاءة بالكهرباء بمصابيح أشبه بالمصابيح التي تستعمل في شهر رمضان المبارك وكان لديه خادم عراقي اسمه جاد ولكن شعرت أن جاد هذا كان يعتبر نفسه صاحب محل لا خادماً وشعرت أنه حارس أكثر منه خادم. فاحتسينا ما طلب لنا من الخمر ودار الحديث السياسي على المكشوف وصارحته بعدم ثقتي بالموظف البريطاني وذكرت له أمثالا كثيرة تثبت صحة نظرتي وأن كل موظف يذكر أنه صديق للعرب ومستعد أن يعلن حرباً على سياسة حكومته إنما يستهزئ بعقل سامعه عدا عن أنه يكذب ويدجل فرد علي قائلاً: إني أوافق معك كلياً. ولكن هنالك لكل شخص رأيه الخاص النابع من اجتهاده وتحليله للأمر. فأنا لا أدعي أنني سأقاوم سياسة حكومتي ولكن علي واجب أن أنذر وأن أواجه عندما أشعر أن سياستها ستكون وخيمة العواقب خطرة المستقبل على مصيرها فأنا أعتقد أن النفوذ الصهيوني في بريطانيا خطر كبير على فلسطين وأنا مستعد أن أثبت موقفي هذا إذ لا يجوز أن يكون للوكالة اليهودية نفوذ دولة داخل... دولة فقلت له: هنالك مثل عربي يقول: «الكلام كلام زين ولكن الله أعلم ما في القلوب وما في الغيب» وانتهت العشوة وتفارقنا.

مضى على هذا اللقاء أكثر من شهر. وحدث أن كنت مرشحاً لانتخابات رئاسة البلدية ففرت بأكثرية ساحقة وكان التعيين يصدر من قبل المندوب السامي في الجريدة الرسمية وبالفعل لم تمض مدة أسبوعين حتى عينت رئيساً لبلدية بيت لحم. فخرج كثيرون من الأصدقاء مهنيين وبعد أسبوعين من تسلمي لرئاسة البلدية زارني دونفل في بيتي مهيناً وتعشنى عندي مع بعض الأصدقاء. وكان بين الحين والآخر يتصل بي تلفونياً ويزودني ببعض الأخبار لجريدتي صوت الشعب وأكثرها عن تحركات صهيونية

وكان يتظاهر بكره عميق للحركة الصهيونية كما كان يحاول أن يقنعني بتقديره لجدارة المغفور له الحاج أمين في قيادة الحركة الوطنية ضد أطماع الصهيونية العالمية وكان يزودني - لإقناعي بصدق تقديره للمغفور الحاج أمين الحسيني - ببعض الوثائق التي كانت تقدم للمندوب السامي من بعض الجهات العربية والتي كنت أطلع عليها سماحته.

وأذكر عندما حوَصر القاوِجِي في جبل نابلس بعد أن توقفت الثورة عام ١٩٣٧ كانت حفلة استقبال في دار صديقي المرحوم حسين الخالدي رئيس بلدية القدس يومذاك وكنت مدعواً لحضور هذه الحفلة وكان بيت المرحوم في شارع مدرسة المطران وبينما كنت أجتاز المدخل هرع للقائني المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني وقال لي: أرجو أن تذهب فوراً لمقابلة صديقك دونفل، وتقول له أن الجيش البريطاني يطوق القاوِجِي في نابلس فإما أن يفك الحصار أو ستعود الثورة أقوى حزمًا وخطرًا، فعدت أدراجي فوراً إلى بيت دونفل وأبلغته رأي سماحته فاتصل فوراً بالمندوب السامي وما هي إلا دقائق حتى قال لي أرجو أن تبلغ سماحته أن الحصار قد فُك فوراً وإذا أراد سماحته فأنا مستعد أن أذهب إلى نابلس واصطحب القاوِجِي بسيارتي الخاصة حتى بغداد. فقلت له سأتي إليك برأي سماحته بعد لحظات من مقابلته، فعدت إلى المجلس الإسلامي وأخبرت سماحته بما قاله لي دونفل فقال سماحته اتصل به الآن تلفونياً واشكره وقل له: إننا نفضل أن ينطلق القاوِجِي بنفسه إلى بغداد هذه الليلة وأبلغه أنني سأظل ساهراً حتى أتسلم نبأ وصوله تلفونياً من بغداد كما طلب إلي سماحته، واني سأنتظر في بيتي نبأ وصول القاوِجِي إلى بغداد عن طريق دونفل أيضاً، كانت الساعة السادسة بعد الظهر عندما أعطيت الأوامر لفك الحصار عن القاوِجِي واتصل بي سماحته في اليوم التالي حول الساعة التاسعة صباحاً يطمئنني أن الوعد كان صادقاً وأن القاوِجِي في بغداد. نقل دونفل بعدئذ إلى بغداد ثم إلى مصر وكان هو المترجم لتشرشل في القاهرة عندما جرى اجتماع تشرشل وروزفلت. وقد زرته في القاهرة عام ١٩٤٩ وكان مريضاً وفقيراً لا يملك شيئاً ولا أعلم أهو حي يرزق أم مات.

العطلة الأسبوعية

كان في زمن الحكومة المنتدبة محاجر في عتليت وكان يشتغل فيها عمال من مختلف الأديان: مسلمون ومسيحيون ويهود، فأعلنت الحكومة المنتدبة آنذاك يوم الأحد كيوم عطلة رسمية في تلك المحاجر. فقامت الصحف الصهيونية تعارض هذا القرار وتهدد وتتوعد وأكدت للمندوب السامي أن قراره هذا سينقضي قريباً. وبالفعل لم يمض أسبوعان على هذا القرار حتى جاءت أوامر لندن أن يكون يوم الجمعة عطلة المسلمين ويوم الأحد عطلة المسيحيين ويوم السبت عطلة اليهود. وهكذا خضع المندوب السامي مثل جلالة الملك للنفوذ الصهيوني المطبق على عنق الإمبراطورية العجوز يومذاك.

في اللجنة التنفيذية

انتخبتُ عام ١٩٢٠ مثلاً لقضاء بيت لحم في اللجنة التي كان يرأسها المغفور له كاظم باشا الحسيني. والتي استمرت حتى عام ١٩٣٦ يوم حلت جميع الأحزاب السياسية وحلت مكانها الهيئة العربية العليا.

حزب الإصلاح

وفي عام ١٩٣٥ عقد مؤتمر في رام الله وتأسس حزب الإصلاح وانتخب المرحوم حسين الخالدي رئيساً وانتخبت سكرتيراً وقد انحل هذا الحزب عام ١٩٣٧.

مؤتمر الشباب

عقد مؤتمر الشباب العربي الأول في مدينة يافا عام ١٩٣٢ وانتخبت رئيساً للمؤتمر الذي أقرّ في ختام جلساته. ميثاقاً وطنياً خطراً. جعله ميثاقاً عاماً للشباب العربي الفلسطيني. وينص على وحدة البلدان العربية وضرورة مقاومة الاستعمار والصهيونية بجميع أشكالها وصيغها وانتخب السيد يعقوب الغصين رئيساً للجنة التنفيذية التي قامت بدور بطولي كان له أثره الكبير في ميدان الجهاد الفلسطيني.

الخدويوي المصري عباس في فلسطين

في ربيع عام ١٩٣٥ اتصل بي المغفور له صديقي حسن خالدي باشا أبو الهدى وقال لي: غداً «الخميس» سيصل إلى حيفا سمو الخدويوي عباس حلمي على متن يخته. لذا سأمرّ بك لنذهب سوياً لاستقباله في حيفا. فاعتذرت له وقلت:

أخشى أن يظن أنني أستجدي وأنا لا أقبل على نفسي هذه الصفة ولا يهمني كائناً من يكون سموه فأكد لي أنني واهم وأنه رجل ذهب ضحية إيمانه بحق مصر وأخيراً أقنعني أن أرافقه إلى حيفا وبالفعل وصل يخت سموه واسمه «نعمة الله» إلى حيفا نحو الساعة العاشرة صباحاً فركبنا مركباً جَاريًا صغيراً حتى وصلنا اليخت ثم صعدنا إلى صالون الاستقبال وإذا برجل سمين بشوش تملأ الابتسامة وجهه الوردي فقدمني لسموه وبعد أن قدمت لنا المرطبات، كانت سيارات ثلاث تنتظرنا ركبناها من القدس حيث نزل سموه في فندق «مرقص» ورافقته طوال مدة إقامته التي استمرت نحو أسبوعين وقد استدعاني يوم قرر مغادرة فلسطين وقال لي: لقد أكرمنا يا «سي عيسى» فأرجو أن تتقبل مني هذه الهدية الصغيرة وقدم لي مظروفاً مقللاً: فقلت لسموه أشكر سموك ولكن لست بحاجة فأنا كنت أشعر أنه من الشرف لي أن أرافق شخصية ضحت بالعرش في سبيل حق الأمة، وإني أعتبر هذه الهدية إهانة كبرى لي، فضحك وأعاد المظروف إلى جيبه وقال لي: فليقدرني الله على سد هذا الدين وكأنه كان يقرأ الغيب إذ سيجد القارئ حدثاً وقع لي وأنا في المنفى في أئينا ما يكاد يكون فصلاً سينمائياً حقيقياً فالى اللقاء وفي ذلك الفصل سأحدث عن أشياء هامة وخطيرة.

محاولة اغتيالي عام ١٩٣٦

كان يوم ٢ تموز ١٩٣٦، عيد سيده الجنة عذراء دير أرتاس الذي كان يرأسه ابن عمي الخوري عيسى البندك وكنت مدعوا لحضور زفة العذراء عليها السلام، التي تجرى في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، وكان مدير بوليس القدس صديقي المرحوم فايز الإدريسي مدعوا أيضاً ومعه ثلة من رجال الأمن للمحافظة على سير الموكب الديني وأذكر عندما خرج الموكب من الكنيسة، كنت ومدير البوليس السيد المرحوم فايز الإدريسي جنباً إلى جنب، ولا أدري سبباً في تلك اللحظة لماذا وضعت يدي على مسدسي إذ شعرت أن أحداً سيطلق علي الرصاص، وقد لاحظ ذلك صديقي المرحوم فايز، فقال لي: إن الناس تهابك وتعلم مركزك وقوتك فماذا جرى لك حتى تضع يدك على مسدسك، فقلت لا أدري السبب ولكن هاجساً في الغيب وسوس لي أن هنالك من سيطلق الرصاص علي فضحك وألزميني أن أعيد مسدسي في بيته ففعلت.

وبعد أن انتهت زفة العذراء وأخذ المدعوون يودعون رئيس الدير المرحوم ابن عمي الخوري عيسى البندك، تقدمت بدوري وودعته وكانت عائلتي وأولادي معي وإذ بصديقي مدير البوليس المرحوم فايز الإدريسي، يسألني إذا كان في سيارتي مقعد يوصله إلى بيت لحم، فقلت له بكل سرور وقد عدنا سوية حتى مدخل بيتي حيث وجدنا شخصاً متكئاً على باب الدار، فألقى القبض عليه ولدى تحريه لم يكن معه أي نوع من السلاح، ودعوت صديقي فايز للعشاء فاعتذر إذ كانت البلاد في حالة ثورة تُسمع

فيها طلقات تخرج بين الفينة والأخرى. فقال: سأتناول فنجان قهوة فقط . فدخل إلى بيتي وفيما كان يحتسي القهوة سمع طلقات نارية بعيدة فاعتذر وعزم على الخروج لانتظار سيارة البوليس للعودة إلى القدس. ولم تمض ساعة على خروجه من بيتي - وكنت قد خلعت ثيابي مطلقاً من شرفة داري - واذ بشخص يناديني باسمي. فهرعت زوجي ومنعتني من الإطلال من نافذة الشرفة وقالت لي: لا تتحرك من مكانك وأطلت من النافذة وقالت للشخص المجهول الباب مفتوح وإذا كنت تريد لقاء زوجي فتفضل من الباب. وما أن أنهت كلامها حتى انهال عليها وابل من الرصاص أصابها منه سبع رصاصات في خدها وذراعها الأيسر كما أصيبت إحدى بناتي وخادمة البيت . وبعد ثوان من إطلاق الرصاص، هرب المجرمون حتى وصلوا ضاحية من ضواحي بيت لحم اسمها «الهيث» وفيها أصدقاء أوفياء لي ولكنهم لم يعلموا ما جرى ولم يدركوا أن أولئك المجرمين الذين التجؤوا إليهم، هم المعتدون على عائلتي. فهرع كثيرون من أصدقائي على أثر إطلاق الرصاص. يستوضحون حقيقة ما جرى . ولما رأوا امرأتي وقد سال دمها في ساحة البيت، نقلوها فوراً إلى المستشفى الفرنسي. وما هي إلا لحظات حتى كان مئات من الشبان المسلحين يشتعلون حماساً وغضباً يحضرون إلى المكان. كما حضر كثيرون بعد ساعة من الحادث وهم نخبة من رجالات البلاد من القدس والقضاة كما جاءت قوة التحري ليسألوا عن الأسباب التي أدت إلى هذا الحادث وإذا ما كنت أنهمم أحداً فنفت أن يكون هناك أي سبب إلا موقفني السياسي من أعداء وطني وبعد مضي أسبوع عرف الأشخاص المأجورون وقد نالوا عقابهم وهم في قبورهم منذ ذلك الحين.

وقد بقيت بعض الرصاصات في جسم عقيلتي حتى يومنا هذا شاهدة على هذه الجريمة النكراء. وما تجدر الإشارة إليه أنها كانت تضع على صدرها رسماً لسيدة الجنة سيدتنا العذراء عليها السلام ولما ذهبت في اليوم التالي لأستفسر عن حالها من طبيب المستشفى الفرنسي وهو صديق حميم لي وجدته واقفا حيران أمام غرفتها. فلما رأني توجه نحوي وقال لي: هنالك سبع رصاصات لاصقة بالقلب أو قريبة منه. ولا ادري. هل أصيب القلب أم لا. ولكن على الأرجح أن إحدى الرصاصات قد أصابت القلب وفي هذه الحالة لا بد من عملية صغيرة خطيرة. وكان هذا الحوار أمام الغرفة التي تأوي إليها عقيلتي فلما سمعت صوتي قالت لي: لا تخف لن أموت وعندي ضمانة محسوسة في صدري إن الرصاصات التي في جسمي لن تصل إلى قلبي وهذه صورة سيدتنا العذراء حميني برغم النزيف الغزير الذي هطل من جسمي فإن مكان الصورة نظيف ولا نقطة دم واحدة ترى هناك . فقلت في نفسي: إن عقيلتي تهذي إذ علي أن أصدق الطبيب. وحالا لححت على الطبيب أن يجري الفحص اللازم للتأكد فيما إذا كانت إحدى الرصاصات قد أصابت القلب. فاستدعى الراهبات وأحضرن الأجهزة اللازمة وأخذ في إجراء الفحص الذي استمر أكثر من ساعة ونصف وفي النتيجة قال لي: أبشرك أن الرصاصات السبع وقفت جميعها تحت صورة سيدتنا العذراء فكانت أعجوبة لا شك الموجودة في جسمها وهذه إرادة الله ولا غالب إلا الله والحمد والشكر له.

الإضراب العام عام ١٩٣٦

أعلنت اللجنة التنفيذية العربية الإضراب العام، فأضربت البلاد برمتها وتألقت من كل مدينة لجنة مسؤولة عن تأمين الإضراب وتموين الشعب وانتخب رئيساً للجنة الإضراب عن منطقة بيت لحم واستمر الإضراب حتى يوم ١١ تشرين الأول ١٩٣٦ يوم تدخل ملوك العرب واثقين بتعهد بريطانيا بوقف تيار الهجرة اليهودية وقد عجزت الحكومة الانتدابية بكل ما لديها من وسائل عن إيقافه أو إضعافه وقد أثبت الشعب الفلسطيني خلال تلك المدة صلابته وعوده وإيمانه بحقه وكفاءاته في استعذاب أية تضحية في سبيل وجوده وكرامته ومصيره مما أذهل العالم أجمع.

الزعيم رياض الصلح في فلسطين

كان الزعيم العربي اللامع، رياض الصلح منفياً في القدس وكان يعيش في فندق «فاست» وهو فندق الماني في الشارع الرئيسي الذي يبدأ من باب الخليل حتى مداخل الأحياء اليهودية، وكنت ألزمه من الصباح حتى ساعة متأخرة من الليل، وكان يوجهني في مقالاتي الافتتاحية وينورعقلي بكثير من أسرار القضية العربية، وكان يقول لي أن العرب محتاجون أن يؤسسوا حكومة ظل في بقعة عربية مستقلة، لا ظل ولا إشراف للأجانب عليها، كي يتمرن شبابنا على أصول الحكم وعلى ضبط الأعصاب، واللجوء إلى العقل والتروي، وكانت هنالك يومئذ مجلة صهيونية أسبوعية اسمها «بالستين بوست» كنا نقرأها سوية وكان يزودني بأرائه وأعترف أنني مدين له بكثير من المعلومات التاريخية والسياسية المتعلقة بالقضايا العربية رحمه الله رحمة واسعة وجعل ذكراه خالدة.

اعتقالي من قبل السلطات البريطانية عام ١٩٣٦

كان يوم ٢ تموز ١٩٣٨ عيد عذراء الجنة المغلقة، الذي تحتفل به قرية أرتاس الواقعة على مسافة ثلاثة كيلومترات من بيت لحم، وكنت مدعواً من قبل المرحوم طيب الذكر ابن عمي الخوري عيسى البندك رئيس الدير المذكور، لحضور القداس

الاحتفالي وزفة الموكب الديني الذي يرأسه بطريك اللاتين بصفتي رئيساً لبلدية بيت لحم وبعد انتهاء مأدبة الغداء التي اقيمت على شرف غبطة بطريك اللاتين. حضر فجأة صديقي الحميم عطوفة الشاعر الكبير السيد فؤاد باشا الخطيب الذي كان يشغل وظيفة وزير القصر لسمو المغفور له الأمير عبد الله يومذاك. وطلب أن يخلو بي لبضع دقائق فأشار لي أن هنالك أمراً باعتقالي من قبل السلطات البريطانية. وألح علي أن أعد حقيبتني وأرافقه إلى عمان بسيارة سمو الأمير فأجؤ من الاعتقال. فشكرته واعتذرت من عدم تمكني من مرافقته إلى عمان قبل أن أصفي أعمالاً تجاه مسؤولياتي في البلدية وجريدتي صوت الشعب. فأخذت في اليوم التالي. أعد نفسي للسفر إلى مصر فأوروبا. ولكن فوجئت في صبيحة ذلك اليوم ٣ تموز ١٩٣٨ بحضور خمسة ضباط بريطانيين مسلحين. إلى مكتبي في إدارة جريدتي صوت الشعب. وأخطروني أن لديهم أمراً بتفتيش مكتب الجريدة. فشرعوا في مهمتهم يفتشون كل صغيرة وكبيرة في أوراقني فصادف أن كان في جيبني تقرير خطير لو ألهموا أن يتحروا ملابسي فور دخولهم لكان مصيري الإعدام المحقق. فأخذت أفكر في حيلة لإخفائه قبل فوات الأوان. فطلبت من أحد الضباط أن يسمح لسائق سيارتي واسمه عيسى سعادة. أن يخرج ليشتري لي علبة سجاير فقال لي: لا مانع. فوضعت التقرير المذكور داخل ورقة العشر جنيهاً وسلمتها للسائق وقلت له: اشتر لي علبة سجاير وعد فوراً. وما أن انطلق لشراء السجاير حتى داهمتني هواجس مقلقة. إذ خشيت أن يجد داخل العشر جنيهاً التقرير الخطير فيعيده إليّ وعندنا أكون قد أسلمت عنقي بيدي إلى المشنقة. وصرت أعد الثواني في انتظار عودته كما أخذت أعد دفاعي فيما لو عاد وبيده التقرير الذي سيلفت نظر الضباط البريطانيين. وعندئذ لا مناص من أن يستحوذوا عليه ويحققوا ضالتهم التي كانوا يبحثون عنها. ولكن السائق كان ذكياً إذ بمجرد أن خرج من دائرة الجريدة ووقع نظره على ورقة مخطوط داخلها أدرك أن تكليفه بشراء السجاير كان حيلة لإخفاء ذلك التقرير المبحوث عنه. وأخبرني بعد أشهر من الإفراج عني أنه مجرد أن رأى تلك الورقة المخطوطة. أشعل عود كبريت وأحرقها. وقد ظلت الهواجس تقلقني إلى أن عاد وليس معه سوى علبة السجاير فهدأت أعصابي وما عدت أحسب أي حساب لهذا التحري الذي يقومون به.

تفتيش داري داخل البلد

وبعد أن أمضوا أكثر من ساعة على تفتيش مكتب الجريدة. طلبوا مني أن أرافقهم إلى مكتبي داخل المدينة الواقع في حي «المدبسة» بالقرب من دير الألمان. وهناك كان عندي آلة إرسال الأولى من نوعها في فلسطين. ولكنها كانت مفككة قطعاً. فلما سألوني عن قطعة وجدوها. قلت لهم إنها قطعة من راديو قديم أردت إصلاحه فلم أتوفق في ذلك وقد دام تفتيش سكني زهاء نصف ساعة.

تفتيش منزلي الصيفي في الدهيشة على طريق القدس الخليل

وبعد أن أنهو تفتيش منزلي داخل المدينة، طلبوا مني أن أرافقهم إلى منزلي الصيفي في الدهيشة الواقع على طريق القدس الخليل. ولما وصلنا، أخذوا في تفتيش البيت حجرة حجرة وكان في غرفة نومي مكتب يحتوي على أربع أدراج من كل ناحية ودرج واحد في الوسط حيث كان في هذا الدرج كتاب من صديقي الأميركي المليونير المستر Chaulor وهو من ألد أعداء الصهيونية العالمية. ومن كبار أصحاب الملايين. ومن أخلص أصدقاء روكفلر المشهور. وقد عرفني به في رحلتي إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٨ المغفور له الأمير عادل أرسلان والدكتور شطارة من عيون الوطنيين المغتربين من أهالي رام الله.

كان كتاب صديقي المذكور في الدرج الوسط وفيه إشارة إلى إمكانية توريد كمية كبيرة من الأسلحة إلى شواطئ شمال فلسطين. ومن غرائب القدر أن كل ضابط من أولئك الضباط كان عنده أمر بان يعيد التفتيش بعد أن ينتهي زميله من دوره. وقد أعمى الله بصرهم جميعاً عن الدرج الوسط ولم يجدوا أي شيء في منزلي الصيفي قد يدينني وكنت يومها داعياً نخبة من أصدقائي على الغداء في منزلي الصيفي غير أن مثلي السلطة طلبوا أن أرافقهم إلى القدس بسيارتي الخاصة، وكان قصدهم أن أحاول الهرب فيطلقوا علي النار ويغتالوني عن سبق إصرار وترصد ولكن قررت أن أواكب المسرحية حتى النهاية.

وما جدر الإشارة إليه، أن مدير البوليس العام يومئذ كان استرالياً وصادف أن جاء ليلة عيد الميلاد لحضور قداس الميلاد في كاتدرائية القديسة كاترينه وكانت مكتظة بنحو عشرين ألف مصلي، وقوفاً خارج الساحة وكان لرئيس البلدية حق تسهيل حضور الصلاة لكبار الموظفين وكبار السياح فزارني في المجلس البلدي ورجا أن أهيئ له مقعداً. فأرسلت معه البوليس البلدي وهياً له ولأمراته مقعدين يليقان بهما وبعد انتهاء القداس حوالي الساعة الثالثة صباحاً مر علي في صالون البلدية وشرب هو وامراته ما لذ وطاب لهما من مرطبات وطعام. إذ كان هناك تقليد تاريخي يحتم على بلدية بيت لحم، إعداد مقصف فخم يحتوي على جميع أنواع المشروبات والطعام مساءً ٢٤-١٢ أي في ليلة عيد الميلاد ثلاث مرات في السنة: الأولى في عيد اللاتين والثانية في عيد الأرثوذكس والثالثة في عيد الأرمن. وكانت هذه المصادفة مع المدير العام لبوليس فلسطين، وهناك بدأ نوع من التعارف يشبه إلى حد ما شيئاً من الصداقة، فلما شاهدني وأنا أسير مع الضباط المذكورين في دائرة الاستخبارات استغرب الموقف واستفهم من جلبي الأمر ووعد أن يرى ما في إمكانه أن يعمل.

ذهبت مع الضباط الذين فتشوا منزلي ومكتب جريدتي إلى القدس حيث دائرة الاستخبارات العامة، وقبل أن تركت منزلي الصيفي اختليت بابني يوسف وقلت له أن يتلف الرسالة الموجودة في الدرج الوسط وللأسف أتلف معها مستنداً تاريخياً

سياسياً خطراً وهو نسخة فوتوغرافية عن اتفاقية المغفور له الملك فيصل وويزمين ١٩٢٠ وهذا المستند أودعه صديقي الكاتب اللامع المرحوم محمود عزمي. وهو المستند الذي سلمه "شرتوك" للمرحوم محمود عزمي وخلصته أن المغفور له يوافق على الوطن القومي شرط ألا يضر بمصالح أهل فلسطين العرب وأن تنال جميع البلاد العربية استقلالها ولست هنا في صدد التعليق على هذا المستند إذ لا يستبعد على الوكالة اليهودية أن تشوه الحقائق وفقاً لمخططاتها.

وبعد أن وصلنا القدس ومكثت برهة قليلة في ردهة الاستخبارات سلمني أحد الضباط غلافاً مقفلاً لأسلمه بيدي إلى مدير بوليس القدس في قلعة باب الخليل. وكانت نيتهم الشريفة أن أهرب بسيارتي فيطلقوا النار علي بعد أن فشلوا في العثور على ما يريدون فذهبت رأساً إلى سيارتي وإلى مدير بوليس القدس. وسلمته الكتاب المقفل. فأظهر امتعاضاً زائفاً وقال لي: هذا أمر بتوقيفك. وأمر نفراً من البوليس أن يرافقوني حتى مدخل سجن التوقيف وكان الفصل صيفاً وكنت أردي بذلة حريرية وكنت قبلها بأيام قد سعيت للدفاع عن رهط من وطني وتحديداً من الشمال وأخرجتهم من السجن. وكان أولئك الموقوفون متهمين بأعمال إرهابية حسب زعم السلطات وقد ظل بعض منهم رهن التوقيف. فلما فتح باب السجن واطلقت عليهم ظنوا أنني أت لإخراجهم كما أخرجت إخوانهم. فوقفوا جميعهم احتراماً. وعبثاً حاولت أن أقنعهم أنني أصبحت واحداً منهم فقضيت في تلك الليلة في سمر توعية وتشجيع لجميع الموقوفين وفي صبيحة اليوم التالي. نقلت مخفورا إلى السجن المركزي الذي كان مكتظاً بالمساجين السياسيين ووضعت في الغرفة مرة «٣٦» وهي الغرفة التي تضح بالجواسيس من ذوي الضمائر السافلة. والذين كانوا يحيطون كل قادم جديد بحفاوة وإكرام استدراجا ليختلقوا عليه ما يدينه بالإعدام إن استطاعوا. وما أن دخلت تلك الغرفة حتى حذرني أحد السجناء الأحرار قائلاً: إنها غرفة الدبابير فكن حذراً.

وكان جاري سجيناً مغربياً اسمه الحاج إبراهيم فدلني على شخصين من أولئك الجواسيس الذين ينامون معنا في تلك الغرفة مفسحاً لهما أن يخرجوا في أية لحظة لمقابلة الميجر جايلز مدير المخابرات العامة. وكان بين المساجين شخص من الناصرة متهم باغتيال "أندروز" حاكم الناصرة فعذبوه بشراسة واحضروا امرأته وهددوه بأن جندياً يهودياً سيضاجعها إذا لم يعترف. وكان الرجل بريئاً وعنيداً في كبريائه الوطنية وبعد أن استقر بي المقام أخذت في القاء محاضرات ليلية حتى الساعة الثانية والثالثة صباحاً على زملائي المساجين ومعظمهم من إخواني المسلمين ورويت لهم كيف أن النبي العربي العظيم منع الكفار من البقاء والدخول إلى الأراضي المقدسة الإسلامية لأنهم كانوا جواسيس يحاولون أن يكذبوا على الله في قرآنه الكريم وأن التجسس أكثر إثماً على امرأته وبناته. وأن ليس هناك جاسوس لا تعرفه الأمة وأن الأمة هي التي ستتولى حكم البلاد وسيادتها وأنها ستحاكم الخارجين على الدين والوطن لأن خطر الجاسوس خطر يهدد وجود الأمة بأسرها وأجمعت جميع الشرائع على خليل ذبح الجاسوس واحرقه حياً. وأن حكام البلاد وهم ليسوا من العنصر العربي يتعمدون أن يقتلعوا عرب فلسطين من ديارهم ليسلموها لليهود وأن كل مسلم لا يؤمن بالقرآن الكريم فهو عدو الله قبل أن يكون عدو أمته

وقد قال الله تعالى في قرآنه الكريم: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمرِ مِنْكُمْ». فالإنكليز الذين يحكمون بلادنا هم أعداء وطننا وديننا ولا يجوز شرعا أن نعتبرهم حكاما ولا أصحاب حق في هذه البلاد العربية. وما أن انقضى أسبوع على وجودي في هذه الغرفة «٣٦» حتى أمر مدير السجن بنقلي إلى غرفة المستشفى حيث فيها سرير وبيت خلاء نظيف. وذات يوم حيث يسمح لجميع المساجين أن يقضوا فسحة شمسية مدتها نصف ساعة في النهار تقدم مني شابان واحد من الرملة فارح الطول ضخم الجسم وآخر من القدس نحيف الجسم قصير القامة وانتحيا جانبا وطلبا إلي أن أقسم بشرفي ألا أبوح باسميهما فأقسمت كما طلبا فقالا لي نحن نتجسس للميجر جايلز ولكن بعد مواعظك استل أحدهما قرآنا صغيراً من جيبه ووضع يده عليه وهو يبكي وعاهد الله والقرآن ألا يعود إلى ممارسة التجسس إذ يعني أنها خيانة لله والإسلام والعرب.

زعيم صهيوني في غرفتي في المستشفى

زارني مدير السجن بعد يوم من نقلي إلى غرفة المستشفى وقال لي سنضع في نفس غرفتك زعيم يهودي معتقل سياسيا. فقلت له: إنني سجين فإذا كان لي حق في إبداء رأيي فأني أفضل أن أعاد إلى الغرفة رقم «٣٦» فقال: أعتقد أنك ستكون مرتاحاً هنا وهذا الزعيم اليهودي هو من أهل النمسا وكان ضابطاً في جيش بلده القديم.

وما هي إلا لحظات حتى وصل رجل عملاق. عرّفني بنفسه بعد أن دخل الغرفة وقال: إنه كان ضابطاً في الجيش النمساوي وأنه من جماعة جابوتنسكي وقد نسيت اسمه. ولم يمكث أكثر من عشرين يوماً إذ صدر أمر بالإفراج عنه وما قاله لي في أحاديث كثيرة: نحن اليهود تعودت رقابنا على الذبح وهذه آخر تجربة نقوم بها. فإما أن تصبح فلسطين قاعدة للامبراطورية اليهودية في حدودها التاريخية الواردة في التوراة، وإما أن تصبح مقبرة تدفن فيها آمال وظموح العالم اليهودي إلى الأبد.

فقلت له ونحن العرب نؤمن بأن فلسطين هي جزء لا يتجزأ من العالم العربي عنصراً وأرضاً وتاريخياً وهي أيضا من الوجهة الروحية المعبد المقدس للعالمين المسيحي والإسلامي. فإن استطاعت الصهيونية العالمية أن تلغي الوجود المسيحي روحياً وعالمياً فلا شك بأنكم أنتم اليهود تستطيعون أن تؤلفوا إمبراطوريتكم اليهودية التاريخية الكبرى في حدودها التاريخية الواردة في التوراة وأعتقد جازماً أن أحلامكم إزاء القوى العالمية عربياً وإسلامياً ومسيحياً. ستصبح كذبة تاريخية وخرافة في قالب مسرحية مليئة بالمآسي والكوارث وبيننا التاريخ والزمن.

نبوة للمرحوم والدي وكان كاهنا لمدة ستين عاماً لكنيسة المهدي

بلغ المرحوم والدي الخامسة والتسعين يوم سجن فأوصيت عقيلتي أن تطلب بركته وألا يفكر إطلاقاً في إهانة شيخوخته بزيارتي في السجن فكان رده على عقيلتي التي كانت جهد نفسها في سبيل الإفراج عني. قال لها: إن زوجك سيخرج من السجن يوم ٢٨ آب يوم عيد العذراء فلا تعبي نفسك ولا تزعجي أحداً من الناس وهذا ما حدث بالفعل.

الإفراج عني

كنت قد دعوت نخبة من الأصدقاء في مخيم الاعتقال إلى الغداء حيث كنا نتبادل الدعوات. وما أن أحضر الطعام حتى استدعاني مدير المعتقل وقال لي: أنت مطلوب للقدس. وهىء نفسك لركوب القطار مع الحرس بعد ظهر هذا اليوم فقد أزعجني هذا الإخطار إذ توقعت أن تكون السلطة قد زورت ما يدينني. وفي نحو الساعة الثالثة بعد الظهر وضعت القيود في يدي ورافقني جنديان بريطانيان مسلحان إلى محطة السكة الحديدية حيث ركبنا القطار المتوجه إلى القدس وعندما وصلنا إلى وادي الصرار علمنا أن معركة حامية قد وقعت بين الجيش البريطاني والمجاهدين الفلسطينيين في القدس وأن السلطة البريطانية قد فرضت منع التجول في القدس فرجوت الجنديين المرافقين لي أن يسمحوا لي بمخاطبة مدير محطة سكة حديد القدس تليفونياً وهو السيد جورج فارس ومتزوج بسيدة من آل البنديك. فلم يعترضوا واستطعت أن أتحادث مع السيد جورج ورجوته أن يخبر أهلي أنني سأكون في محطة القدس حوالي الساعة السابعة مساءً فقال لي: سأخبرهم الآن بالتلفون. ولكن من الصعب أن يتمكن أحد منهم أن يحضر لوجود نظام منع التجول. وأخيراً وصلت محطة القدس نحو الساعة السادسة والنصف فوجدت أخي سابا في انتظاري ملهوفاً وأخبرني أن كتاباً من برلين قد وصل من صديق لي ويتضمن الكتاب أشياء خطيرة فحرقته فساورتني هواجس مزعجة ووجدت في انتظاري شاباً من أقاربي يملك إدارة تكسيات في القدس أوصلني سجن القدس المركزي حيث نمت قلقاً وفي الصباح هرع أهلي وأصحابي لزيارتي. وبينما كنت أتحادث معهم. حضر ضابطان من رئاسة التحري والتجارب وطلباً مني مرافقتهم إلى دار الرئاسة فذهبت معهما حتى غرفة الرئيس الميجر جايلز الذي قال لي: يمكنك أن تذهب إلى بيتك على أن تحضر مع أمتعتك يوم ٣ أيلول ١٩٣٨ وهنا يجب الإشارة إلى تقليد شرس اعتادت السلطة البريطانية أن تطبقه على المعتقلين السياسيين إذ كانت تفرض عليهم إقامة جبرية في بلد ما أو مدينة ما. فظننت أن هذا التقليد سيطبق علي. فعدت مع أهلي إلى بيتي حيث أقيم مهرجان شعبي كبير وأخذت أستعد لليوم المعهود يوم ٣ أيلول ١٩٣٨ لا أدري أين سيكون المقر.

٣ أيلول ١٩٣٨

أعددت حقيبة صيفية وضعت فيها ملابس صيفية قليلة إذ اعتقدت أن المنفى سيكون داخل فلسطين وتوجهت إلى دائرة الخبايا حيث كان في انتظاري جنديان بريطانيان رافقاني إلى محطة سكة حديد القدس فركبناها في نحو الساعة التاسعة صباحاً، وكانت وجهة القطار إلى حيفا. فاطمأن بالي إذ كان لي أصدقاء كثيرون والاتصال بأهلي سهل وميسور. وعندما وصلنا محطة رأس العين قيل لنا أن معركة عنيفة دائرة بين الفدائيين الفلسطينيين الأبطال والجيش البريطاني وأن القطار سيتوقف نحو ساعتين على الأقل. مضت الساعتان ولم تنته المعركة. وفي نحو السادسة بعد الظهر سار القطار متجهاً إلى حيفا. حيث وصلنا في نحو الساعة الثامنة مساءً. فوجدت سيارة عسكرية في انتظارنا في محطة حيفا قادتنا إلى الشاطئ حيث أشار عليّ الجنديان بالنزول وإبراز جواز سفري. ثم دخلنا إلى الميناء حيث كانت هناك باخرة راسية. وسرنا حتى سلّم الباخرة حيث أودع الجنديان جواز سفري عند المسؤول عن قبول المسافرين الذي سألتني بدوره في أية درجة تريد السفر؟ فسألته هل يمكن أن أعرف وجهة الباخرة. فقال الباخرة ذاهبة إلى أوديسا روسيا عن طريق بيريوس/ اليونان. فقلت له سأنزل في بيريوس / اليونان وكم ثمن الدرجة الأولى؟ فقال ثمانية عشر جنيهاً. فدفعت له ما طلب مني وبقي في جيبي ثمانية عشر جنيهاً لا غير.

تحركت بنا الباخرة في حوالي الساعة العاشرة مساءً وكنت قد ذهبت إلى غرفتي وخلعت ثيابي استعداداً للنوم وكان اسم الباخرة ازفسييتيا وغرفة الدرجة الأولى مفروشة بأجمل الأثاث. وبعد نصف ساعة من تحرك الباخرة، جاء أحد بحارة الباخرة وقال لي أن الكابتن يدعوك للتعشاء معه فشكرته وقلت له ها أنت تراني قد خلعت ملابسني وسأقبله غداً صباحاً فانصرف ولم تمض دقائق حتى عاد ملحاً عليّ أن ألبس ملابسني وألبي دعوته. فلبست ثيابي وذهبت إلى المقصف حيث كان ينتظرني الكابتن وهو كهل في الخمسين من عمره ويتكلم الفرنسية بطلاقة. فدعاني أن أشرب معه كأساً من الفودكا فقبلت شاكرًا وكانت المأزاة الكافيار الروسي «رومانوف» ثم دار بيننا حديث مجاملة ومن ثم سألتني إذا كنت أوافق مواصلة السفر حتى أوديسا فأتعرف على روسيا وأكتب كتاباً عنها فاعتذرت بحجة أنني متعب من السجن والاعتقال وأني بحاجة إلى الراحة كما أنني سأكون قريباً على أهلي في بلاد اليونان ليزودوني بما أحتاج؛ وأخيراً بعد أن تناولنا العشاء دفع إلي كتاباً عن الشيوعية باللغة الفرنسية لأقرأه ثم أعاد إلي ما دفعته ثمناً لتذكرة السفر وقال إنني ضيف الباخرة كشخص منفي من وطنه فقبلت منه شاكرًا ومكثت يومين وليلتين كاملتين في ضيافة الكابتن. وعندما وصلت الباخرة إلى ميناء بيريوس قال لي: ستجد عربة تاكسي توصلك إلى حيث تريد فشكرته وبالفعل وجدت سيارة كان سائقها يناديني باسمي فحملت حقيبتي وركبت سيارة وقلت له أن يوصلني إلى شارع «إيبوكراتس» ١٩٩ وهو بيت المرحوم أخي الذي كان يومئذ أستاذًا في جامعة في أثينا. فلما وصلت البيت لم يكن فيه أحد. إذ فهمت من الجيران أن أخي وعائلته يقضون الصيف في إحدى الجزر. فرجوت السائق أن يوصلني إلى أحسن فندق فتركني في

فندق «كران بريطانيا» حيث أقمت فيه مدة شهر إلى أن عاد أخي وعائلته من مصيفهم. وكان وصولي إلى بيربوس يوم ٥ أيلول ١٩٣٨. وقد عشت في بيت شقيقي إلى يوم ٢٤ كانون أول ١٩٣٨. حيث جاء بوليس يدعوني لمقابلة وزير الداخلية اليوناني فذهبت وقابلته وأخبرني أن السفارة البريطانية تحتج على وجودي في أثينا. متهمه إياي بأني أهرب أسلحة إلى فلسطين وأن علي أن أغادر اليونان فوراً وأن أختار الجهة التي أرغب في الرحيل إليها. فأجبتته بأني ممنوع من دخول سوريا ولبنان والعراق ومصر وفرنسا وإنكلترا. وليس لدي من المال ما يمكنني الآن من السفر. فقال علي أية حال احضر إلى مكتبي مع حقيبتك بعد ظهر هذا اليوم في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر. لتندبر موضوع رحيلك فوراً.

مفاجأة سينمائية

تركت وزارة الداخلية مهموماً غير يائس إذ منذ وعيت الحياة ولا أزال عميق الإيمان بالقضاء والقدر. وأن لا هروب عن المكتوب. فذهبت إلى البيت وأعددت حقيبتني استعداداً لمواجهة ما في الغيب. وفي تمام الساعة الثانية بعد الظهر رن جرس الباب. فأطلت الخادمة وكانت عجوزاً في نحو الستين من عمرها لتقول لي: إن سيدة جميلة في سيارة فخمة تسأل عنك. كنت دوماً ألبس الفيصلية بدلاً من القبعة في جميع رحلاتي إلى أوروبا. وما زلت ألبسها حتى الآن إذ لا تطيق نفسي لبس القبعة. لا عن تعصب وتزمت بل أني لا أطيقها ذوقاً. وعندما كنت في أثينا كنت أذهب كل صباح إلى فندق كران بريطانيا لأقرأ صحيفة كانت تصدر بالفرنسية يومياً واسمها «مساجيرواتين» وفي ذات يوم بينما كنت عائداً إلى بيتي للغداء مرت فتانان جميلتان أنيقتان لفت نظرهما الفيصلية التي كنت ألبسها فلما مرتا بي. أخذتا في الضحك بصوت ناعم رخيماً فلم أعرفهما أي اهتمام. وقدرت أنهما استهجنتا هذا النوع الغريب من لباس الرأس. وذهبت كل منهما في سبيلها وذهبت ذات ليلة إلى مقصف الفندق الذي تعودت أن أرتاده تنفيها للنفس. وكنت أشعر بتلك الليلة بكابوس ضاغط على روحي. لانقطاع أخبار عائلتي. فعزمت أن أحتمي شيئاً من الخمر ترفيحاً لهمومي العميقة الأليمة. إذ كانت عائلتي مؤلفة من تسعة أشخاص وليس لدى عقيلتي أي دخل لإعالة الأولاد غير أثار البيت الذي كانت تبغ لتستطيع تغذيتهم. فدخلت المقصف وأنا في هذه الحالة النفسية المكبوتة. وكان المقصف مكتظاً بالشبان الأنيقين والفتيات الفاتنات. يحتسون كوؤوس الخمر التي كانت تتلألأ في أقداحهم. كالباقوت المشعشع الساحر. ولم أجد على رحابة المقصف مقعداً أو مائدة صغيرة لأجلس عليها. بما زاد في نفسي ألماً وامتعاضاً وكم تمنيت أن أكون شبحاً من أولئك المرحين الذين كانوا يمثلون معبداً للغزل والحب والغرام وعندما شعرت أن لا مكان لي في هذا الجو المرح السعيد قررت العودة مكسوفاً خائباً حزيناً. وعندما كنت أهم بالخروج كانت فتاة في عنفوان صباحها وكان محياها أشبه بالقمر. بعينين يشع منهما لعان النجوم وقد صفت شعرها جدائل أشبه بتاج على رأس ملكة تلبس رداء من الحرير الأخضر

المشجر بألوان باقة الزهر كأنها في حلبة مسابقة في ميدان الأناقة والجمال. وكانت تجلس وحدها وأمامها كأس من الويسكي كأنه اللؤلؤ بلون البنفسج. وقدرت أنها تنتظر صاحباً أو عاشقاً أو نديماً ولم أجد هذا المجهول بل رأيت في خيالي أنه مزود ببركة السماء لتغمره سعادة الحب والغرام. وبينما أنا في صراع هذه الأحلام الطارئة. قد صرت منها على أقل من خطوة. نظرت إلي بإبتسامة ناعمة مضيئة. ودعتني أن أجلس إلى مائدتها. وقد ساورني في تلك اللحظة هاجس من الذهول والحذر بل شعرت بأني في حالة غيبوبة لا شعورية فجلست دون أن أحس أني حقاً إلى جانب هذه الحورية!!

سأذكر ما حييت. تلك اللحظة المفاجئة التي غمرتني بقشعريرة نفسية أجمت لساني عن الكلام وشعرت كأني سكران هل أنا في عالم اليقظة أم في عالم الأحلام. وأدهشني أكثر ما أدهشني أنها كانت تتكلم العربية بلهجة عراقية صحيحة كما كانت تتقن الفرنسية والتركية إلى حد كبير. جاء الخادم وسألني ما أريد؟ فطلبت كأساً من الويسكي وهنا أصبت بدوار. إذ أخذت أفكر بعجز الحقيقي عن دفع ما يجب أن أدفعه. وكم يكون مزرباً أن يحين موعد الدفع ولا أملك في جيبى المقدار المطلوب. كما اعتراني خجل صامت داخلي فيما لو دفعت هي ثمن مشروبنا إذ هل يقبل أي رجل يشعر بشهامة أن تدفع عنه امرأة!! ثم طاف في مخيلتي. أن تكون هذه الخلوقة من عصافير الليل تبحث عن فريسة وقد أمسكت بفريستها فعلاً فأخذت أفكر في حيلة للإفلات من الفخ الذي وقعت فيه تلقائياً وبدون تفكير... وقد لاحظت بعد أن جلست أني صامت وحيران. فسألته بماذا تفكر؟ فقلت لها لأقطع عليها الطريق. إني أفكر بامرأتي وأولادي وأني رجل مطرود من بلادي ولا أملك ما أعيش به. وظننت أني بهذه الحيلة أجو من الفخ «وأملص بريشني». فسألته عن اسمي وهي دوماً تتكلم العربية باللهجة العراقية. فقلت لها إني عراقي من آل الراوى فأخذت تعدد لي أسماء عائلة الراوى واحداً واحداً. فارخ علي وأدركت أني أخفقت في حيلتي. وكاد رأسي يقفز في الهواء عندما قالت لي أنت لست من العراق ولا من آل الراوى. أنت عيسى البندك وأنا منوط بي مراقبتك يومياً. وأرجو أن تثق أن في عروقي دما أزرق لن يخونك. وأقترح عليك أن تسكن في بيتي حيث تعيش باطمئنان ولا تحتاج إلى أي شيء وبذلك تريحني في متابعة خطواتك والجري وراءك وتقصي أخبارك وقد أخرجت من محفظتها صورة لي مأخوذة أمام السفارة الإيطالية في أثينا. حيث ذهبت يوماً لأستلم رسالة من زعيم كبير. والصورة تظهرني أمام السفارة المذكورة ويدي جواز سفري. إبهاما بأني كنت أقصد أخذ تأشيرة سفر فساورتنى هواجس كثيرة عديدة وقلت لها سأفكر بالأمر ولا أسألك عن الجهة التي تكلفك بمراقبتى. وأنا لست إلا منفياً من بلدي ولا صلة لي بأحد إطلاقاً. فأحلت أن أحتسى كأساً آخر من الويسكي. وقضيت معها أكثر من ساعتين ثم غادرت على أن نلتقي في مساء اليوم التالي في نفس المكان. تكررت اجتماعاتنا إلى حد كاد يقع قلبي في شرك حب عام. وأخيراً سكنت في بيتها واطلعت على أسرار كثيرة. وليس في مذكراتي هذه. مجال لإفشائها. وكنت أرافقها كل صباح إلى الحدائق الملكية نقضي النهار حتى غروب الشمس بين ظلال الأشجار الندية وتغريد الطيور. وكنت دوماً أروي لها لهفي على معرفة عنوان ومكان المغفور له سمو الخديوى عباس حلمي. فتظاهرت وكأنها تسمع اسماً غريباً. كما كانت تلح دوماً وتساألني كيف عرفته وأين قابلته.

العودة إلى يوم ٢٤ كانون أول ١٩٣٨

ذكرت في مطلع هذه الرواية السينمائية، عن إخطار وزير خارجية اليونان بوجوب حضوري في تمام الساعة الخامسة بعد الظهر في اليوم التالي مع حقيبتني لإيصالي إلى الحدود، وصرت أراقب عقارب الساعة في ذلك اليوم، انتظاراً لحلول الموعد المشؤوم، وبينما كنت في هذه الحالة الكئيبة أصارع الهواجس نادتني بالهاتف وقالت سأمر بك بعد قليل إذ كنت قد خرجت من البيت لشراء بعض الأغراض، ولم تكن تعلم أو بالأحرى لم أطلعها على إخطار وزير خارجية اليونان بترحيلي في مساء ذلك اليوم.

فخرجت من بيتي إلى سوق الجواهر وعرضت ساعتني الذهبية وعلبة سجائر ذهبية أيضاً وحملت جواز سفري لأدلل للصائغ على أنني لست لصاً ولا جانياً وأن ظرفاً قاسياً أُلجأني إلى بيع السلعتين المذكورتين، فعرضتھما على أول صائغ قابلته وأكدت له أنني سأبيعها من دون نقاش، إذا دفع لي سعراً معقولاً وأني مضطر للبيع لضرورة ملحة ورجوته أن يحكم ضميره، فبعد أن اطلع على جوازي وتفرّس في الساعة وعلبة السجائر قال لي: إنها تساوي خمسين جنياً، فإذا وافقت سأدفع المبلغ لك فوراً وإلا فاستفتي غيري من الصياغ، فقبلت المبلغ من دون نقاش إذ كنت في أشد الحاجة ولا أعلم مصيري والجهة التي سأبعد إليها، وقد عدت إلى البيت في تمام الساعة الثانية بعد الظهر، وحزمت أمتعتي استعداداً للرحيل.

وصول الخديوي إلى أثينا مفاجأة

بينما كنت أعد الدقائق، وإذ بصديقتي عادت إلى البيت تحمل لي بشرى وصول المغفور له الخديوي عباس حلمي إلى أثينا وأنه في فندق كران بريطانيا وبعد لحظات سيرسل لك سيارة تحملك إلى الفندق لأن سموه في انتظارك حالاً، وبالفعل وصلت السيارة ونزل منها شاب فارغ القوام، وعرفت بعد أن حياني أنه ألباني الجنسية ومرافق لسمو الخديوي فذهبت معه إلى الفندق وصعدت إلى الصالون الخاص المعد لسموه فما أن شاهدني حتى قابلني بعناق الأب لابنه بحنان وعطف وبشاشة، لن أنساها مدى الحياة فسألني عن وضعي وكيف أعيش فشرح لسموه أزمة الترحيل وتأثيرها على نفسي، فقال رحمه الله، لقد حان سداد الدين، فأنت ضيفي مدى الحياة ثم سألني عن عقيلتي وأولادي فشرح لسموه حالتهم وقال رحمه الله وأسكنه فسيح الجنات، سأبرق الآن إلى حيفا كي يُسلم سيارتي التي أعدتها لرحلاتي الصحراوية إلى السيدة عقيلتك، وكانت هذه السيارة تحتوي على غرفة نوم وحمام وصالون من أحدث طراز وفيها من أسباب الراحة الشيء الكثير، وهي من صنع ألماني- وبالفعل سُلمت السيارة إلى

عقيلتي في بيت لحم - ثم قال لي رحمه الله : إنني مدعو لشرب الشاي في قصر الملك جورج وستكون معي بصفتك سكرتيري الخاص. وسنسافر مساء هذا اليوم إلى اسطنبول وستظل من أفراد معيتي إلى أن يقضي الله أمراً كان معقولا. وبالفعل رافقت سموه إلى القصر الملكي وقصصت لجلالته مأساة فلسطين وعند انتهاء المقابلة حدث سموه مع كبير المرافقين عن قضيتي بصدد إخطار وزير الخارجية لترحيلني، وأخبره أنني سأكون بمعية سموه للسفر مساء في يخته إلى الأستانة. وقال المرافق سأخبر وزير الخارجية فوراً ألا يتخذ إجراءات ضد سكرتير سموك.

في يخت الخديوي

برحنا بريوس مساء ١٩٣٨/١٢/٢٤ متوجهين في معية سموه إلى اسطنبول وقد تفضل رحمه الله واستضافني في غرفة مفروشة بالحريير والأثاث الفاخر. فأقلع بنا اليخت على بركة الله وفي نحو الساعة التاسعة تناولنا العشاء وقضيناها سمرا حتى الساعة الواحدة صباحا ثم استأذنت وذهبت للنوم في غرفتي الفخمة. وبعد أن خلعت ملابسني استعدادا للنوم خطرت على بالي حكاية رواها لي المغفور له صديقي الحميم حسن خالد باشا أبو الهدى وخلصتها. أن السلطان عبد الحميد كان إذا قدم له أي إنسان خدمة ذات قيمة كان يدعو هذا الانسان إلى عشاء ملكي في قصر يلدز. وبعد انتهاء العشاء كان يقدم لضيفه صرة في محرمة مذهبه. داخلها خمسون ليرة «عصلمية» ذهباً أجرة أسنانه «دش ياره سمي» ثم يرافقه أحد الأمناء إلى مقصورة مؤثثة بأغلى وأجمل الرياش وداخلها رف من الغواني اللواتي لا يتجاوز سنهن السابعة عشرة. يلبسن ثيابا حريرية شفافة زرقاء بلون السماء ومطرزة بنجوم ذهبية يعبق من أجسامهن أريج عطر ساحر ومضطجعات على سرر من الذهب مفروشة بالحلل الحريرية الزرقاء فما أن يدخل الضيف إلى تلك الغرفة. حتى يتعرين كما خلقهن الله فيقمن برقص يهيج الشهوات. وقد أخذت بعضهن ينقرن على العود والقانون والدف بحيث يخيل للمرء أنه في جنة على الأرض.

قدم رجل ذو مقام رفيع وسنه خمس وثمانون سنة. خدمة سياسية كبرى للسلطان عبد الحميد في أوج عصره ومجده دعاه السلطان إلى مأدبة العشاء الملكية وبعد انتهاء العشاء قدم له صرة الحرير المحتوية على خمسين ليرة عصلمية ذهباً. ثم أمر أحد أمناء القصر أن يرافقه إلى غرفة الغواني. فسار الأمين المذكور ذاك العجوز الوقور إلى باب الغرفة ففتحها له وقال له تفضل لقضاء ليلتك السعيدة في ضيافة السلطان فما أن دخل هذ الرجل حتى تعرت الغواني من ملابسها وأخذت في الرقص الشهواني والغناء الساحر ترحيبا بالضيف الكبير فما كان منه إلا أن أغلق باب الغرفة وامتطى مقعدا وبال على جميع تلك الغواني قائلاً: إن النعمة التي تظهر بعد الثمانين لا تستحق إلا البول عليها؟؟

وتذكرت هذه الرواية قبل أن أوي إلى سريري، والقصد أن أجعل منها عصمة لنفسي وأن أشكر الله بعد الضيق والظلام، وأن أروّض نفسي على التواضع العريق فنمت على الأرض ولم أمس السرير وفي صبيحة اليوم التالي استدعاني رحمه الله للفقور بمعينه وسألني كيف نمت قصصت عليه الحكاية التي رواها لي المغفور له حسن خالد باشا فضحك كثيراً وقال لي لكن بعد الآن يجب أن تنام في السرير وتشعر بالسرور فشكرته غاية الشكر وعرفان الجميل فقال لي لا فضل لي فكل شيء من الله عز وجل.

مذكراتي إلى موسوليني عام ١٩٣٨

قرأت في صحف أينا أن مستر تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا سيقوم بزيارة موسوليني يوم ٧ كانون الأول ١٩٣٩. فبرحت أينا يوم ٥ كانون الأول ١٩٣٩ متوجهاً إلى روما وأعددت مذكرتين عن قضية فلسطين. واحدة لموسوليني وأخرى لقداسة البابا. وذهبت يوم وصولي إلى روما بالذات، إلى السفارة المصرية حيث قابلت المستشار السيد حقي بك الشهرم، الذي لم أكن أعرفه من قبل فشرحت له مهمتي ورجوت أن تطبع المذكرتان المكتوبتان باللغة الفرنسية على آلة السفارة الطابعة. فأظهر منتهى الشهامة والنخوة والوطنية وكلف سكرتير السفارة بطبع عدة نسخ من تلك المذكرة. فشكرته شكراً عميقاً على وفائه وشهامته وتوجهت فوراً إلى وزارة الخارجية الإيطالية، وقابلت السنيور Cyuanclueely «كواناويلي» سكرتير السنيور شباتو ورجوته أن يحدد لي موعداً مع وزير الخارجية لأقدم له المذكرة شخصياً كي يرفعها للسنيور موسوليني. فاعتذرعن ضيق وقت الوزير بمناسبة زيارة شمبرلن ووعدني أن يقدمها فوراً إلى السنيور شباتو وزير الخارجية كي تقدم لموسوليني.

وكنت أعددت نسخة من المذكرة المشار إليها لأرفقها إلى قداسة البابا فتفضل نيافة مطران الروم الكاثوليك في روما السيد برديل وهو مثل غبطة البطريك ورافقني إلى الفاتكان حيث قابلنا وزيرخارجية الفاتكان يومذاك الكرونال «باشلي» الذي انتخب فيما بعد بابا باسم ببوس الحادي عشر فقابلنا نيافته وشرحت له تفاصيل القضية الفلسطينية وأخطار أهداف الصهيونية العالمية على الأماكن المسيحية المقدسة وعلى سلم المنطقة الذي هو جزء من السلم العالمي فوعد أن يرفع المذكرة لقداسة البابا إذ كان موعد مقابلة تشامبرلين للبابا يوم ٩ كانون الأول ١٩٣٩. وبعد مقابلة المستر تشامبرلين لموسوليني بيومين، استدعاني وكيل وزارة الخارجية الإيطالية، وقال لي: إن موسوليني أخطر تشامبرلين بأن موسوليني مستعد أن يزحف بجيشه لاحتلال فلسطين، إذا تأسست هناك دولة يهودية تشكل خطراً كبيراً على السلم العالمي وعلى الحضارة. ففي ١٤ كانون الأول ١٩٣٨، دعوت إلى مؤتمر صحفي حضره أكثر من عشرين مراسلاً أجنبياً غير صحفيي روما وأدليت لهم بما أخطر به موسوليني رئيس وزراء بريطانيا المستر تشامبرلين وقد أذيع ذلك التصريح الخطير في معظم إذاعات العالم وفي كبرى الصحف الغربية والعربية.

في قصر اللورد بيفربروك في لندن

كنت منفيًا من قبل السلطة البريطانية في أثينا فاستلمت رسالة من صديقي اللورد يشوقني بالحضور إلى لندن أثناء وجود الوفود العربية عام ١٩٣٨ فركبت الطائرة إلى روما ومنها ركبت القطار الذي يتوجه إلى باريس وكان ذلك يوم ٢٨ كانون أول ١٩٣٨. فالتقيت بجميع أعضاء الوفود العربية في محطة باريس ورافقتهم في الباخرة التي أعدت خصيصاً لهم لاجتياز مضيق المانش وكانت لي مفاجأة سارة أن التقيت بصديقي الحميم مرافق الوفود العربية الصحفي المشهور المرحوم أسعد داغر وقد حللت في فندق دورشتر وبعد وصولي بساعات التقيت صدفة بالمندوب السامي لفلسطين السيد آرثر واكهورب الذي دعني خصيصاً ليكون في لندن أثناء وجود الوفود العربية فما أن رأني حتى حياني وقال لي: إنه على استعداد لمساعدة الوفود العربية ودعاني إلى الغداء في بيته حيث لم يكن معنا غير شقيقته العجوز واعتذر لي عن سجنني وإبعادي وإنها ظروف لا رد لها. وبعد أن علم اللورد يشوقني بوصولي وجه إلي كتابا يدعوني فيه لتناول الشاي في بيته وأرسل لي سيارته الخاصة. وقد شرحت له مفصلاً مهمة الوفد المتعلقة بتفسير العهد المقطوع للشريف حسين والذي مضى على استقلال فلسطين. وقد وعدني أن يكتب مقالاً في الموضوع وبالفعل ظهر مقال خطير يؤيد وجهة النظر العربية. ثم رجوته إذا كان لديه من الوقت لدعوة الوفود العربية لسماع آرائهم فوعدني أن يفعل ذلك وقد كنت أفايله كل يوم تقريبا إلى أن اتصل بي سكرتيره الخاص.

اللورد بيفربروك في بيت لحم

زار فلسطين عام ١٩٢٠ اللورد بيفربروك صاحب جريدة الديلي اكسبرس. والذي كان وزيراً للطيران في وزارة الحرب الكبرى التي كان يتأسسها تشرشل. وقد دعاه المغفور له كاظم باشا الحسيني الذي كان رئيساً للجنة التنفيذية العربية إلى حفلة شاي أقيمت في بيته العامر وكنت مدعواً مع نخبة من وجهاء بيت لحم. قوامها السادة المرحوم إبراهيم جاسر. سليمان حنضل. يوسف الدبدوب. فخطر لي أن أدعو اللورد إلى زيارة بيت لحم لإكرامه وشرح شعور البلاد إزاء خطر وعد بلفور فاستشرت إخواني في بيت لحم الذين كانوا معي في الحفلة. فسروا للفكرة واقتراح السيد إبراهيم جاسر أن تكون الضيافة في قصر آل جاسر إخوانه الكرام. فوافق الجميع على هذه الفكرة وعندما تقدمت من اللورد ورجوته إذا كان لديه وقت كي يخصصه لزيارة بيت لحم، ولو لفترة محدودة. وقلت له: إنني أدعوه باسم مدينة بيت لحم. فألقى نظرة خاطفة على ساعته وقال لي: إن الساعة تقارب السادسة مساءً وأنا مدعو إلى مأدبة عشاء سيقمها المندوب السامي هيرت صموئيل على شرفي الليلة. فوفقتي محدود فقلت له: إن المسافة بين بيت لحم

والقدس لا تتجاوز سبعة كيلومترات ففي برهة عشر دقائق تكون في بيت لحم، فتقضي عندنا ساعة وتعود ولديك وقت لتلبية دعوة المندوب السامي. فقبل الدعوة بانشرح وابتسام، فأخبرت إخواني الذين استأذنوا بالعودة إلى بيت لحم، وكلفوني أن أدعو جميع الذين كانوا مدعويين في دار المغفور له كاظم باشا وعلى رأسهم كاظم باشا بنفسه، وأن أرافق اللورد والمستر دوجلاس الذي كان يومذاك رئيساً للدبليو إكسبرس، فركبنا السيارات من دار المغفور له كاظم باشا متوجهين إلى قصر جاسر على مدخل بيت لحم، وكان رتل من السيارات يقل المدعويين إلى أن وصلنا بعد ربع ساعة فاستقبلنا على باب القصر الفخم عميد العائلة المغفور له سليمان جاسر وأشقائه الكرام بما عرف عنهم عن بشاشة عربية أصيلة، فهاله جمال القصر وبديع هندسته وفاخر ريشته وأكثر من ذلك تلك الوجوه الضاحكة ذات الابتسامات الودية فأخذ مكانه بين التصفيق الحاد وأديرت كؤوس المرطبات والشمبانيا والويسكي على المدعويين ثم وقفت وارتجلت كلمة جاء فيها: إن العرب خالفوا مع بريطانيا عن طريق زعيمهم الأكبر جلالة الملك حسين بن عون الذي قطعت له دولتكم بتاريخ ٢٤ تشرين الأول من سنة ١٩١٥ عهداً رسمياً بحق العرب بالاستقلال في فلسطين وذلك في رسالة موقعة من هنري مكماهون إلى الشريف حسين. وها هي دولتكم تنقض هذا العهد، بإهداء وطننا بما فيه المقدسات المسيحية والإسلامية، إلى شعب دخيل لا تربطه بهذا الوطن العربي العريق سوى أساطير خرافية لا يقرها الحق والواقع وها أنتم اليوم في أحد قصور فلسطين الفخمة، نخاطبكم ونقول لكم: إن شعب فلسطين ضارب في أعماق الحضارة، وليسوا رعاة غنم وسقاة ماء، كما يزعم الصهاينة وأن بريطانيا لا تكون قد برت بوعدها للعرب أمام التاريخ في حالة بيع وطن لا تملكه لشعب لا حق له مطلقاً في هذه البلاد العربية المقدسة وهنالك فارق حضاري عظيم بين العرب والصهيونية العالمية منبع الدسائس والمؤامرات والفتن العالمية على أنواعها وأن العرب جادون في توثيق علاقاتهم مع دولتكم على أساس من العدل والحق والشرف والصدقة البرينة، تلك الروابط التي إذا قدرت حق قدرها ستصبح قوة عالمية لدعم السلم في منطقة الشرق الأوسط بل وفي العالم أجمع. ثم طلبت من الحضور أن نشرب نخب اللورد فوقف اللورد وكان كالأسد الهصور تلمع عيونه ببريق الجد والحزم وقال: إنني كنت عضواً في الوزارة التي قطعت وعد بلفور ولم أكن أعلم أن في فلسطين شعباً حياً راقياً يفوق تصوري وإنني أشعر الآن أمام ما شاهدته وما سمعته من حقائق دافعة أنني ارتكبت خطأ كبيراً بموافقتي على ذلك الوعد الظالم وإنني أعدكم أن أقاومه بكل ما لدى من قوة وإنني سأبرهن على ذلك. فلن ألبى دعوة المندوب السامي هذه الليلة للمأدبة المقامة على شرفي وسأبقى بينكم طوال هذه الليلة فقبل خطابي بالتهليل والتصفيق الحاد لدقائق عديدة وظل معنا في سمر ومرح في القصر الجاسري حتى الثامنة صباحاً. وقد أرسل برقية لجريدته الدبليو إكسبرس، نشرت في جميع الصحف في اليوم التالي حرفياً. وقد استدعتني دائرة المخابرات لسؤالي عن سبب عدم تلبية اللورد لدعوة هيرت صموئيل، فقلت للمسؤول الذي قابلته أن عليكم أن تسألوا اللورد بنفسه عن ذلك، وكان هذا اللقاء المفاجئ بيني وبين اللورد بيفربروك، بدءاً لصداقة شخصية عميقة الجذور، وكنا خلال مدة طويلة نتبادل الرسائل والمعلومات حول الشؤون العربية عامة والفلسطينية خاصة. وأخبرني أن أطباءه أشاروا عليه أن يغادر لندن للاستحمام في شواطئ فرنسا وأرجح - رغم ثقتي العميقة بوفاء هذا الرجل العظيم - أن الحكومة البريطانية هي التي أشارت عليه بالتغيب بعد المقال الخطير الذي نشره وأثبت فيه وجهة نظر العرب من حيث شمول فلسطين بالاستقلال وهذه كتبه التي نشرها بالزكوجراف للتاريخ.

خضوع الإنتداب للنفوذ الصهيوني العالمي

قلت في مقدمة هذه الأطروحة أن إسرائيل كانت موجودة منذ احتلال الجيش البريطاني لفلسطين عام ١٩١٧ فكانت الوكالة اليهودية حكومة بجميع مؤهلات الحكومة هي المهيمنة على التشريع إذ كان النائب العام اليهودي الصهيوني بنتوش يتلقى التعليمات من الوكالة اليهودية. فيعد القوانين التي تمهد السبيل سلب الأراضي من أصحابها الشرعيين العرب. إما عن طريق تضخيم الضرائب أو اعتبار جزء كبير من أراضي العرب كمراعي أو كأراض عامة لتستملكها الشركات الصهيونية. أضف إلى ذلك شراسة الصحافة الصهيونية وتصريحات نخبة من كبار الصهاينة.

العودة إلى فلسطين

أعلنت ألمانيا الحرب على اليونان يوم «١٧» نيسان ١٩٤١ وذلك لأن الجيش اليوناني كاد أن يحتل ألبانيا بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على اليونان. وكان أسرى الطليان يساقون بالملات إلى أثينا في مظهر مؤثر. ما حمل هتلر على إنقاذ حليفه موسوليني من هزيمة نكراء. وشعر الملك جورج وكبار قواده العسكريين. أن الأفضل لهم هو التصدي للجيش الألماني الذي كانت طائراته تهز وتزلزل جو أثينا بشكل مرعب. فأمر جلالته رحمه الله. أن ترسم صورة للجندي اليوناني في جميع الشوارع الرئيسية حانيا رأسه للسيدة العذراء عليها السلام. ثم أعدت مراكب بحرية لنقل الملك وأركان حكومته للرحيل إلى مصر. واستطعت أن أرحل في إحدى تلك السفن وكانت القافلة تهاجم كل ليلة من قبل الطائرات الإيطالية أثناء اجتيازها البحر الأبيض ووصلت إلى الإسكندرية بعد ثلاثة أيام. ولدى تدقيق الجوازات من قبل بوليس التحري المصري. أخطرت بأن علي أن أعد نفسي للرحيل مساء ذات اليوم في قطار القنطرة المتوجه إلى القدس وبالفعل كنت في القنطرة في نحو الساعة الثامنة مساء وكان القطار مكتظاً بالجنود البريطانيين وليس هنالك أي مكان للجلوس. غير أن أمراً عسكرياً أوصى بعزلي في صالون خاص يحرسه جنديان مسلحان حتى وصلت اللد ولم يكن أحد من أهلي يعلم بقدمي إذ جنبت إشعار عائلتي لأني توقعت أن أساق إلى الاعتقال أو السجن. كانت تذكرتي تخولني الوصول إلى القدس ولكن أردت بعد أن قابلني موظفان بريطانيان من دائرة الخبايا كانا قد فحصا أمتعتي بكل دقة فسألت أحدهما إذا كان بالإمكان العثور على تاكسي في محطة اللد. فقال لي: إن ذلك ميسور فتركت القطار وأخذت أبحث عن سيارة تاكسي. ولم تمض دقائق حتى وجدت ضالتي وتوجه بي السائق إلى منزلي الصيفي في الدهيشة فما أن دخلت الدار حتى ظنت عائلتي وأولادي أنهم يرون حلماً. ولزمت بيتي ليزورني أقاربي وأصدقائي. دون أن أبرح مكاني. في هذا الوقت بالذات كان الألمان يدقون طبول الحرب على أبواب الإسكندرية من العلمين وهنا تبدأ مسرحية مفاجئة سأوردها في فصل مختصر خاص.

الملك فيصل الثاني في بيت لحم

زار بيت لحم المغفور له جلالة الملك فيصل الثاني بيت لحم في عام «١٩٤١» فأعددت لجلالته استقبالا قومياً فخماً حضره أكثر من عشرة آلاف شخص من جماهير الشعب من جميع سكان منطقة قضاء بيت لحم وعندما وصل الموكب الملكي إلى ساحة المهدي قوبل جلالته بالهتاف والزغاريد المدوية والتصفيق الراعد وكان يصحبه سعادة قنصل العراق العام في فلسطين صديقي الحميم سعادة شاكر بك الوادي وأخذ لجلالته الرسم المنشور في هذه الصفحة. وسار الموكب إلى كنيسة المهدي وكانت دموع الفرح تنهمر من عيون السيدات والرجال. بصورة مؤثرة جداً. تعبيراً عن الآمال القومية المعنوية المتعطشة لاستنشاق نسمات عبير الاستقلال والحرية. وكان جلالته يحيي الجماهير الغفيرة معترفاً بما لمسّه من شعور قومي عميق الجذور وقد استقبله في مدخل الكنيسة الإكليروس العربي واليوناني بحرارة بالغة وإجلال عظيم وقدمت لجلالته - تذكراً لزيارته الميمونة - بعض التحف الفنية الصدفية المصنوعة باليد والتي سر بها جلالته سروراً عظيماً وقد استغرقت زيارته أكثر من ساعتين تجلت خلالها عواطف الجماهير بمظاهرة كبيرة لم تشهد مدينة بيت لحم مثيلاً لها وقد وُدع كما استقبل بأسمى معاني الإجلال والإكرام. اعتزازاً بمشاهدة ملك عربي حميم يزور مدينة السلام حيث ولد فيها رائد السلام والرحمة والهدى أسكنه الله فسيح الجنات. وحقق للعرب ما يصبون اليه من آمال وسعادة واستقلال.

المغفور له الملك عبد الله يشرفني بزيارة بيتي في الدهيشة

كان المغفور له جلالة الملك عبد الله مدعوا إلى مأدبة غداء من قبل فضيلة الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل وكان موكبه تتقدمه مصفحات بريطانية في طريقها إلى مدينة الخليل. وما أن وصل الموكب أمام مَصيفي الواقع على طريق بيت لحم الخليل. حتى تفضل وأمر الموكب بالوقوف وتفضل بزيارة بيتي وكان معه المغفور له عطوفة إبراهيم باشا هاشم فاستقبل جلالته بكل مظاهر الإجلال والإحترام وبعد أن تفضل بالجلوس في صدر الديوان. ارتجلت كلمة شكرت جلالته على تفضله بهذه اللفتة الملكية السامية وأكدت لجلالته أن عرب فلسطين يؤملون أن يكون جلالته الساهر والياقظ إزاء المؤامرة الشريرة الشرسة التي تهدف إلى اقتلاع الشعب الفلسطيني من وطن آبائه وأجداده وأن يكون جلالته الحارس الأمين على المقدسات الإسلامية والمسيحية ورد جلالته قائلاً: إنه يعتبر هذا البيت بيته وأن فلسطين هي أمانة الأجيال ولن يفرط بشبر من مقدساتها وقد قوبلت كلمته بالهتاف والتصفيق وزغاريد يا أبا طلال حامي الديار وبعد أن قدمت لجلالته المرطبات وُدع كما

استقبل بمزيد من الإجلال والإكرام ثم واصل الموكب سيره إلى مدينة الخليل حيث تناول طعام الغداء على مائدة فضيلة الشيخ محمد الجعبري رئيس بلدية الخليل.

القضية الأرثوذكسية

تتلخص القضية الأرثوذكسية بإنكار البطريركية اليونانية لحقوق الطائفة الأرثوذكسية العربية. في عائدات الأوقاف التي يجب أن تكون مخصصة للمؤسسات الاجتماعية الخيرية والعلمية لأبناء الطائفة بناء على العهدة العمرية التي تنص صراحة على هذا الحق. ولما بلغ تعجرف البطريركية اليونانية حد الاستهتار بحقوق الطائفة. اندلعت ثورة ضد الإكليروس اليوناني سنة ١٩١٠ فتدخلت الحكومة العثمانية رسمياً واقترحت تأسيس مجلس مختلط له الحق في مراقبة الميزانية وتوجيه شؤون الطائفة وتقرير تأسيس كلية لاهوتية ليتخرج منها أبناء الطائفة وتقرر أيضاً أن تكون حصة الطائفة سنوياً من عائدات الأوقاف مئة ألف جنيه ذهباً وقد تأسس المجلس المختلط لمدة وجيزة ثم أقفل في عهد البطريرك داميانوس وظلت القضية تتأرجح في مؤتمرات تعقد إلى أن تألفت عام ١٩٤٥ لجنة تنفيذية تمثل الضفتين الفلسطينية والأردنية وكان لا يزال على قوامها السادة: أنطون عطا الله، سمعان داوود، عيسى البندك عن فلسطين ويعقوب جميعان عن الأردن واقترحت حكومة فلسطين بدء مفاوضات بين هذه اللجنة وممثلين عن المجمع المقدس وقد عقدت بعض الجلسات ثم أعلنت الثورة وظل الركود قائماً ولا بد أن تتجدد الجهود للوصول إلى تسوية حول تعنت البطريركية وتعصبها العنصري بادعائها أن الأوقاف هي ملك الأمة اليونانية. مما قد يؤدي إلى تصفية العنصر اليوناني وإحلال بطريرك عربي بدلاً من سيادة عنصرية الهدف يتبناها مهاجرون من قبرص وكريت ومن جزر اليونان وفي باطن الغيب كثير من المفاجآت التي قد تحقق حقوق الطائفة الأرثوذكسية العربية.

وفد اللجنة الأرثوذكسية العربية يزور قصر عابدين في القاهرة

انتدبت اللجنة التنفيذية الأرثوذكسية العربية كلا من السادة: المرحوم الخوري نقولا خوري طائفة القدس يومذاك، ويعقوب جميعان ممثلاً عن أرثوذكسي الأردن، وعيسى البندك، وكان هذا الوفد قد حمل هديتين فنيتين صدفتين واحدة للمغفور له جلاله الملك عبد العزيز آل سعود. وهي عبارة عن سلف من صدف مربع الشكل تعلوه الشارة السعودية «سيفان» وفي وسطها

المسجد الأقصى المبارك وفي داخلها سبحة صدفية تلمع حباتها وكأنها ألماس والثانية للمغفور له الملك فاروق وهي أيضا سفظ صدفى منقوش عليه رسم المسجد الأقصى المبارك وفي داخله سبحة ماثلة للسبحة التي خصصت للمغفور له الملك عبد العزيز وعملاً بالأصول البروتوكولية. كان لزاماً على الوفدين أن يزورا قصر عابدين لتقديم هدية المغفور له الملك فاروق. فأخذنا موعداً من القصر وعينت لنا الساعة الحادية عشر لمقابلة الأمين الأول لجلالته. فذهبنا لقصر عابدين في الموعد المضروب وقادنا جندي إلى غرفة الأمين الأول السيد «طابوزاده» الذي استقبلنا ببشاشة فقدم المغفور له الخوري نقولا السفظ المذكور. وكانت دهشتنا أكثر منها ذهولاً عندما سألنا الأمين «طابوزاده» أين يكون المسجد الأقصى؟ فتصدت مرجلاً رداً على كلامه فقلت: هو المسجد الأقصى الذي قال الله تعالى فيه: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وبعد أن قدمت لنا القهوة ودعنا الأمين وانصرفنا مندهشين من هذا الجهل الفاضح.

في حضرة الملك المغفور له عبد العزيز آل سعود

وفي تمام الساعة التاسعة مساءً كان موعد تشرفنا بمقابلة المغفور له جلالة العاهل السعودي العظيم وأذكر أن سكرتيراً كان واقفاً على مدخل صالون جلالته قال لنا: الرجاء ألا تطول مقابلتكم لجلالته عن عشر دقائق لأن هنالك مواعيد لأكثر من عشرين وفداً هذا المساء. فلما حان موعدنا وتشرفنا بجلالته الذي استقبلنا بترحاب عربي عريق ثم أمرنا بالجلوس وهنا قدمت له السفظ بكلمة قلت فيها: إن وفدنا يحمل لجلالتكم تحية الأرض المقدسة التي ولد فيها ومات وصعد إلى السماء سيدنا عيسى عليه السلام والتي أسرى الله رسوله العظيم ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وها نحن نشتم في أردان لجلالتكم عطر النبوة المحمدية الذي ما زال عابقاً أريجاً في سماء فلسطين. الذي ما زال يحتفظ بحفيف أجنحة الملاك جبرائيل الذي أسرى بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد أصبح الإسراء أمانة إسلامية محمدية عربية توجد في عنق لجلالتكم إلى يوم الدين. وإن الصهيونية العالمية تهدف بصورة رئيسة إلى طمس وتدمير العقيدتين الإسلامية والمسيحية وحاوّل الإمبريالية أن تزرع في قلب الأمة العربية جرثومة السرطان تعمداً لإفنائها واستملاك أراضيها واغتصاب ثرواتها وخيراتها وإننا نلتمس من لجلالتكم التدخل. سيما وأن قائدنا العظيم سماحة الحاج أمين الحسيني وهو قائد سفينتنا إلى شاطئ العز والنصر. لا يزال محروماً من العودة لتسلّم مهام مسؤولياته القومية. فعرب فلسطين يؤملون من لجلالتكم بذل أقصى ما يمكن من جهودكم الجبارة. لممارسة حقه الطبيعي في قيادة أمتة والسهر على مصير بلاده. فرد لجلالته قائلاً: إن فلسطين هي بؤبؤ عيني ولن أتخلي لحظة عنها وإنها عاصمة العرب روحياً للمسلمين والمسيحيين العرب. ولا بد أن يعود سماحة الحاج أمين الحسيني إلى ممارسة حقه الطبيعي في قيادة شعبه والسهر على مصير بلاده ونحن معكم ومعه بكل إمكانياتنا وقد استرسل رحمه الله في الحديث

زيادة عن نصف ساعة بحيث خيلَ إلينا أننا نستمتع إلى عظات أحد الخلفاء الراشدين، وبعد انتهاء مواعظه الحكيمة ودعنا جلالته، رحمه الله رحمة واسعة.

إنقاذ مقبرة الطائفة الأرثوذكسية العربية من الاغتصاب وبناء غرفة كاملة في ليلة واحدة

أبطلُ الدفن في مقبرة طائفة الروم الأرثوذكسية العربية الواقعة في ساحة المهد في عام ١٩٠٥. وأقامت بطريركية القدس سوراً حولها بطلب من مختير وذوات الطائفة الأرثوذكسية العربية، لعجزهم مالياً عن القيام بذلك، صيانة لحرمة موتاهم، وكتب على مدخل المقبرة الرئيسي في الجهة الجنوبية النص التالي: «أبطل الدفن في مقبرة الروم الأرثوذكسية في عام ١٩٠٥». كنتُ رئيساً للبلدية ورئيساً للجمعية الخيرية الأرثوذكسية في آن واحد عام ١٩٣٥ وكانت الجمعية منتخبة من الطائفة على أساس تمثيل الحارات، فكنت ممثلاً عن حارة العناترة، وكان المرحوم السيد إبراهيم السعدى ممثلاً لحارة الفراحية، والسيد فلक्स أبو ردينة عن حارة النجاجرة والسيد المرحوم ميخائيل مرزوقة عن حارة القواوسة، والسيد جودة زرزور عن حارة الحريزات. أرادت الجمعية إطلاق غبطة البطريرك بصفته الرئيس الروحي الأعلى للطائفة على رغبة الجمعية، في ترميم القبور ونقل عظام الأموات في حفل ديني في مكان خاص إلى المقبرة الحالية. تمهيداً لإقامة عمارة كبرى فوق أرضها يرصد ريعها لفقراء الطائفة وللإنفاق على المرافق الاجتماعية الأخرى. فأخطرنا غبطة البطريرك برغبة الجمعية ورجونا أن يعين لنا موعداً للتفاوض حول هذا الموضوع. وكان ذلك في عهد البطريرك مثلث الرحمت تيموثاوس. فرد علينا أنه سيستشير الجمع المقدس ويخبرنا بماذا يكون قراره، فبعد مدة أسبوعين عين لنا موعداً لمقابلته في البطريركية فذهبنا وفداً يمثل الجمعية وعرضنا عليهم الفكرة تفصيلاً وألحنا بالرجاء أن نصل إلى حل وديّ سريع، فأبلغنا أن هناك اتفاقية مبرمة بين البطريركية الأورشليمية الأرثوذكسية ورئيس الفرنسي سكان العام تمنع البناء بشروط معينة وعلو معين، فوعدنا غبطته أن نتقيد بنص الاتفاقية بحيث لا ندع مجالاً لأي اعتراض، فرفض غبطته وقال: إن المقبرة هي ملك البطريركية دون أي شريك، فحاولنا محاولات كثيرة أن نرده عن عناده عبثاً.

استشارة قانونية

عقدت الجمعية اجتماعاً طارئاً وعرضت على إخواني أن نتعاهد على إنقاذ المقبرة من الاغتصاب مهما كلفنا الأمر وأن نكون مستعدين لأي نوع من التضحية فعرضت على إخواني أن أستشير صديقي المرحوم علي جارالله الذي كان يشغل منصب

القاضي الأول في محكمة العدل العليا في فلسطين. فوافقوا على ذلك وذهبت في اليوم التالي والتمست منه تزويدنا برأيه القانوني في هذه القضية. وبعد أن شرحت له رحمه الله جميع التفاصيل. سألتني هل لدى البطريركية كوشان باسمها فقلت له. لا يوجد أي كوشان ولا أي قيد أو مستند في يد البطريركية. فقال لي: إن الوسيلة الوحيدة التي تمكنكم قانونياً من استملاك المقبرة. هو أن تقوموا بتشييد أي شيء في جزء من أرضها ولو غرفة صغيرة عندئذ ستقيم البطريركية الدعوة. فطالبوها بابرار ما لديها من مستندات مشروعة تدعم دعواها بالملكية. لتتمكن إقامة الدعوة على الطائفة في شخصية الجمعية.

التصميم على بناء غرفة كاملة في ليلة واحدة

عرضتُ على إخواني الرأي وقررنا إعداد خريطة لغرفة لا تقل مساحتها عن عشرين متراً مربعاً «أربعة أمتار في خمسة» على أن يقام بناؤها في الجهة الشمالية وكلفنا مهندس البلدية أن يقدر بالدقة ما تحتاجه العملية من حجارة وإسمنت وشيد وتراب وحديد وأن يعد أيضاً سعة الباب والنوافذ وأن يوصي فوراً ببدء العمل بها كي تكون جاهزة للتركيب في ذات الليلة التي سيتم فيها البناء. وأن يعد أسلاك الكهرباء اللازمة والبلاط لأرضيتها ولسطحها وأن تخزن كل هذه المواد في مكان قريب من المقبرة بصورة سرية جداً.

بدء البناء في الساعة التاسعة مساءً

كان ضابط بوليس بيت لحم يومذاك صديقي الحميم السيد كامل عريقات. فتجنبت أن أطلع على خططنا لإعفائه من أية مسؤولية أو تخافياً للاصطدام. واشهد أمام الله والتاريخ أن كلمة أهالي بيت لحم قد اجتمعت في تلك المعركة الصامتة من جميع الطوائف بلا استثناء وأظهر الجميع تعاوناً وتصميماً سيبقى على الدهر منارة شرف عالية الأبراج. فجمعنا أكثر من مئة عامل من بنائين مختصين وأصحاب الحرف على اختلاف أنواعها. كما رجوت أصحاب السيارات العمومية أن يمتنعوا عن تأجير أية سيارة لأي راهب يوناني إذا طلب أن يذهب إلى القدس لإعلام البطريركية فيما إذا كشف الأمر. وأبلغت السيد عبد الله الحاج وهو من إخواننا الفواعرة المسلمين وهو عملاق جسمًا وشجاعة أن يقف على باب الدير مسلحاً وأن يطلق النار على أي شخص من رجال الدين اليونانيين إذا حاول الخروج من الدير في تلك الليلة كما تعهدت للشبان المسلمين أنني مسؤول شخصياً في حالة تصدى السلطة لمنعنا من مواصلة العمل ولو أدى ذلك إلى وقوع قتلى. كما دعوت الكهنة العرب جميعهم أن يشمروا عن سواعدهم ويساهموا في المعركة حتى النهاية. وفي الساعة التاسعة مساءً بدأ العمل في هدم السور الجنوبي وحفر

الأساس ولم يتحمل ذلك أكثر من نصف ساعة ثم شرع البنائون في عملهم وكانوا أكثر من عشرة رجال. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وهي الساعة التي يدق فيها ناقوس الأرمن لصلاة السحرية المعروفة باسم «الثلية» انتبه الراهب الأرمني وشاهد جموعاً غفيرة وحركة غير عادية في المقبرة فأخبر مطران الروم بأن هنالك حركة تخريبية في المقبرة فأطل المطران من على الجرسية على ساحة المهدي وشاهد المئات من الرجال والشبان يعملون بهمة ونشاط وحماسة فلم يجرؤ على الخروج من الدير وانتظر حتى مطلع الشمس وما أن بلغت الساعة السادسة والنصف صباحاً حتى كانت الغرفة المشار إليها قد تم بناؤها وركبت أبوابها ونوافذها وكلها مدهونة على أحسن وجه كما ربطت أسلاك الكهرباء في السلك العمومي فكانت الغرفة تتلألأ فيها الأنوار الساطعة. وفي الساعة السابعة صباحاً خرج مطران الروم من الدير. وكان يومذاك في بيت لحم زهاء خمسين سيارة أجرة «تاكسي» فرفض أي سائق أن يستقله بسيارته للذهاب إلى القدس لإطلاع البطريركية على ما شاهده بأعينه.

حضور حاكم القدس البريطاني

وفي تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً وصل إلى بيت لحم حاكم القدس البريطاني ومعه الترجمان الأول للبطريركية وبعد أن شاهد الغرفة زارني الحاكم في مكنتي في المجلس البلدي. وكانت ساحة المهدي مكتظة بمئات من نخبة المدينة وشبانها وسيداتهما يتفرجون بإعجاب واعتزاز على غرفة كاملة الإجاز في ساعات قليلة معدودة. وكان مكنتي أيضاً مكتظاً بالهنيين النخبة من ممثلي المدينة على اختلاف طوائفهم. فسألني هل أعطيت رخصة لبناء هذه الغرفة؟! فقلت له نعم وبكل فخر واعتزاز. فسألني ولماذا اشتغلتم ليلاً؟ فأجبتُه إنني تعمدت أن يكون الشغل ليلاً تجنباً من وقوع قتلى من الرهبان اليونان فإن شبيبة الطائفة متهيجة وهي تعمل في تربة مقدسة تضم رفات آبائهم وجدودهم جميعهم وأنا شخصياً أحمل كل هذه المسؤولية أ قانونية كانت أم إدارية مهما بلغت. فضحك وقدمت القهوة وبعد أن شربها قفل راجعاً إلى القدس.

البطريركية تقدم الدعوة علي بصفتي رئيساً للجمعية الأرثوذكسية

أقامت البطريركية الأرثوذكسية الدعوى علي بصفتي رئيساً للجمعية الأرثوذكسية العربية فمثلت أمام المحكمة دون أن أستعين بأي محامي. بينما عهدت البطريركية بقضيتها لأقدر محامٍ في ذلك الوقت وهو السيد إيكاريدس.

وبعد أن فتحت الجلسة طلبت من المحكمة أن تسأل المحامي بأي حق جاسرت البطيريركية أن تقيم هذه الدعوة. وهل أبرزت لمحمتكم الموقرة أي مستند يثبت أي حق شرعي لها في هذه المقبرة التي هي بالنسبة لنا. قدس الأقداس حيث تضم تربتها رفات أبنائنا وأجدادنا. وبعد نقاش لم يستمر دقائق قررت المحكمة تأجيل الدعوة حتى تبرز البطيريركية المستند الشرعي الذي يخولها حق الادعاء.

البطيريركية تطلب مفاوضتنا

طالبنا غبطة البطيريرك للمفاوضة. فذهبنا برؤوس مرفوعة وفواضنا بمنتهى الأدب والاحترام والحزم. مما حمل البطيريرك على الاعتراف بحق الطائفة في ملكية المقبرة دون أي نزاع.

المباشرة في بناء فندق عصري

لم يمض نصف شهر حتى باشرنا في البناء إذ كنا أعددنا خارطة لإقامة فندق عصري. يرصد ريعه لمصالح الطائفة الاجتماعية على علاتها. وقد اعترض علينا الفرنسيون أثناء البناء فدعوت رئيس الفرنسيين العام الذي زار البناء وأطلعته على الخارطة وأكدت له أننا لن نخرج علي محتوى الاتفاقية وأكدت له أيضاً أننا لن نسمح بإقامة مراقص في هذه العمارة ولا شيء يخالف آدابنا وتقاليدينا وعاد مسروراً وبارك لنا عملنا.

وأصبحت العمارة فندقاً فخماً الآن. بدر دخلاً كبيراً على صندوق الجمعية وكان قد تبقى نحو عشرين ألف دولار لإتمام البناء تبرع بها السادة أجمال المرحوم حنين جارور وخلييل وخورخي رامدور إذ ذهب وفد إلى التشيلي مؤلف من السادة جودة زرزر وشقيقي سابا وكان التبرع في حفلة عشاء أقامها صديقي الحميم السيد سابا جارور على شرف الوفد المذكور وقد أقامت الجمعية نصباً تذكاريًا للسيد حنين جارور اعترافاً بفضلته وتخليداً لاسمه ببارك الله في همة أهالي بيت لحم من مسلمين وكاثوليك وأرثوذكس وجميع أعضاء الجمعية الأبطال رحم الله من يسكن في جنان النعيم وجزاهم الله خيراً على ما أدوا من تضحيات جسام وواجب إنساني سيظل رمزاً وذكرى حسنة على موقف أهالي بيت لحم التاريخي العظيم الذي سيظل مفخرة إلى يوم الدين.

مقابلة الملك بول ملك اليونان

انتدبني المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني بصفته رئيساً للهيئة العربية العليا عام «١٩٤٧» مندوباً خاصاً لجلالة ملك اليونان بكتاب خاص لأشرح لجلالته خطر التقسيم على السلم الدولي في المنطقة وما تستهدف له الأماكن المسيحية المقدسة من أخطار. فسافرت إلى أثينا وتشرفت بمقابلة جلالة الملك بول في قصره الصيفي في «بسينجيكو» ورفعت له كتاب سماحته ومن ثم شرحت لجلالته أخطار التقسيم وقدمت لجلالته بعض خف صدفة من شغل بيت لحم التي سر بها جداً وقال لي: إننا أخذنا تعليمات لتأييد التقسيم ومع ذلك فقد قنعت الآن أنه خطر وسأكلم أمامك رئيس الوزراء كي يتصل بوفدنا في الأمم المتحدة ليعطيه تعليمات بعدم تأييد التقسيم. وبالفعل حدث بالتلفون مع رئيس وزرائه المسيو نسالدارس وبعد المكالمة التلفونية قال لجلالة الملك أن يخبرني أنني مدعو على الغداء على مائدة رئيس الوزراء في اليوم الثاني ليعطيني الرد النهائي بعد الاتصال بوفد اليونان في الأمم المتحدة فشكرت لجلالته وانصرفت. وفي اليوم التالي تشرفت بتلبية دعوة رئيس الوزراء على الغداء في بيته الذي أبلغني أن التصويت قد حصل وأن وفد بلاده نفذ التعليمات السابقة وأنا جننا متأخرين مع الأسف فشكرته وعدت إلى مصر وعاد معي صحفي يوناني يمثل صحيفة مهمة اسمه كولوناس وقد أخبرت سماحته بما جرى.

المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين الأوحده

ما لا شك فيه، أن قضية فلسطين هي قضية العالم العربي الرئيسية. كما أنها قضية إنسانية عربية وعالمية، إذ ليس الصراع المستمر بين عرب فلسطين والصهيونية العالمية، صراعاً بين شعبين أو مذهبين سياسيين، إنما هو بالنسبة للأمة العربية صراع وجود. خاصة وأن تلك الجرثومة الصهيونية العالمية قد زرعت تعمداً وعن سبق إصرار في قلب الأمة العربية لإلغاء وتفتيت الوجود العربي. ليس في فلسطين فحسب بل في جميع الأقطار العربية بلا استثناء، إذ ما زالت هنالك مؤامرة تاريخية عميقة الجذور، تتعمد إطفاء مشعل الروحانية الشرقية، التي يجسدها العرب للسيطرة على مقدرات العرب ومصيرهم، إلى أجيال طويلة وإذا ما تعمق أي باحث واع في الغوص إلى أبعاد تلك المؤامرة يرى أشباحاً سوداء تؤكد أن هنالك امتداداً لرواسب الحروب الصليبية، التي سبق أن أخذت بالدين ذريعة زائفة كاذبة، لتبرير شرعية العدوان المسلح الشرس. فاستعانت اليوم بالصهيونية العالمية كحجر مقلع مصوب إلى رأس الأمة العربية ومصوبة نحوها أحدثت الأسلحة الفتاكة والأموال الزاخرة، تحت ستار توازن الأمن في منطقة الشرق الأوسط. ولما كان الشعب الفلسطيني هو الخندق الأول في قلعة الدفاع العربي وعلى رأسه المغفور

له سماحة الحاج أمين الحسيني الذي جهر ببطولة وعزم بالصيحة القومية العربية الأولى. تلك الصيحة المدوية التي كرسها الدماء الفلسطينية الطاهرة طيلة ما يقارب نحواً من نصف قرن والتي دوى صداها في جميع أنحاء الجزيرة العربية والعالم الحر. توكيداً بأن العرب الفلسطينيين هم في طليعة الفداء عن الأمة العربية جمعاء وقد عاهدوا الله والتاريخ والأجيال على أن يجعلوا من جماجم شهدائنا الأبرار، محرّاباً شامخاً تتوهج من قمته أنوار التضحية الكبرى والصمود العنيد. مؤمنين بأن ذلك المحراب، سيكون منارة التوعية الثورية للعالم العربي في جميع أقطاره. وذلك لأن قضية فلسطين هي قضية المصير العربي بل المدخل الطبيعي للوحدة العربية الشامل. ولما كنت أدون مذكراتي عن أحداث فلسطين وما واكبها من أسرار ومؤتمرات، فإنني وجدت في تاريخ وشخصية المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني، الأوج الأسمى في انتفاضة روحية لشعب ولد في أرض تزودت بأسمى معاني النداء الروحاني منذ الجلجثة إلى مسرى النبي العربي العظيم صلى الله عليه وسلم . وإليكم شخصية المغفور له زعيم فلسطين الأول والأكبر.

مضت مدة تزيد على أكثر من نصف قرن، ظلت فيه - وستستمر إلى يوم الدين - شخصية المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني صورة مضيئة لفلسطين عربياً وإسلامياً ودولياً ولست في مجال هنا لأصف مدى شعبيته، فهو غني عن التعريف . إذ لم تبلغ أية شعبية لأبي زعيم في الشرق ما بلغته شعبيته من أبعاد روحية لا حد لها. فكان الفدائيون الذين يلقى القبض عليهم من قبل السلطات العسكرية الإنكليزية يتعرضون لأنواع همجية بالغة الشراسة و العنف، فكانوا إزاء جلاذيتهم ينشدون بأعلى أصواتهم وهم مكبلون والهروات تنهال على أجسامهم كالمطر الغزير، كانوا ينشدون "سيف الدين الحاج أمين" وكلما ازداد جلاذوهم همجية ازدادوا حماسة وصموداً مرددين تلك الأغنية الوطنية، وأذكر بعضاً من الحوادث الكثيرة أن تعرض فدائيون من قضاء بيت لحم إلى دورية عسكرية بريطانية فقتلوا منها نحو خمسة جنود ووقع هذا الحادث بالقرب من برك سليمان، فأخذ الجنود البريطانيون يعتقلون كل عربي يصادفونه في طريقهم من قرى القضاء، خصوصاً من قرى حوسان والخضر ونحالين وبيت فجار، فاعتقلوا نحو خمسين شخصاً بينهم شباب وشيوخ ووقعت هذه الحادثة في شهر تموز من عام ١٩٣٥ وكنت رئيساً لبلدية بيت لحم، وكان لزاماً - بل فرضاً وطنياً - علي أن أتدخل إذ جاءني بعض المحتاير وقالوا لي: إن الموقوفين مقيدون في أيديهم وأرجلهم ومعرضون لحرارة الشمس فذهبت إلى برك سليمان حيث شاهدت بعيني تلك المأساة المخرجة وكان عدد المقيدين يزيد على خمسين شخصاً وما أن وقع نظرهم علي حتى صاحوا جميعهم بصوت راعد «سيف الدين الحاج أمين» نحن فداك يا فلسطين، نرجو أن تزور سماحته وتلمس جبهته الطاهرة وأن تبلغه أن حرارة الشمس أضعف من حرارة إيماننا وأطلب لنا بركته.

وحاولت عبثاً أن أقنع الضابط المسؤول أن يقدمهم للمحاكمة إذا كانت لديه أية أدلة تثبت اشتراكهم فيما حدث . وظلوا طيلة يوم كامل تحت حرارة الشمس دون أكل أو شرب، وفي اليوم الثاني سيقوا إلى القدس وظلوا موقوفين حوالي أسبوعين حتى تمكنت من كفالتهم وإخراجهم من السجن، فكانت أمثال هذه المأساة تتكرر في كثير من أنحاء فلسطين، كان هناك بعض النقاد من

قالوا أن سياسة المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني كانت سياسة سلبية خرساء وأنها كانت سببا للكارثة الجامعة التي آلت بفلسطين. ونسى أوتناسى الناقدون المغرضون أن سياسة بريطانية التي تمارسها خلال الانتداب البغيض كانت قائمة على التصميم المجرم للتمهيد لخلق إسرائيل واقتلاع الشعب العربي من أرضه لسلب حقه في الوجود. إنها حقائق تاريخية ملموسة واقعية يجب على أي محلل منصف أن لا يتجاهلها أو يغض النظر عن أخطارها. كان موقف سماحته رحمه الله من القرارات الصهيونية المدعومة من بريطانيا أن يقف مبصراً وموقفا الشعب إلى الأخطار الشرسة المحدقة بهم. مرسخا في أعماق الجماهير أن التضحية وحدها هي الكفيلة ببعث الظل وإسماع مظلمة الشعب للعالم الحر. فأسس رحمه الله اللجان الوطنية في كل مدينة وقرية مكرسا جميع أوقاته ليلا ونهارا في تنظيم وتكتيل القوى الجماهيرية وتغذية معنوياتها. ثم أجه إلى العالمين العربي والإسلامي موفدا الوفود ثم أخذ في عقد المؤتمرات الإسلامية واستطاع أن يستقطب القوى الإسلامية العالمية بصورة عامة والقوى الإسلامية الهندية بصورة خاصة التي هددت بريطانيا بالانفصال عن الإمبراطورية البريطانية إذا استمرت في ممارسة سياسة الغدر والظلم ضد الشعب الفلسطيني المكافح. ثم أثار قضية البراق وهو الحائط المقدس للجامع الأقصى فنشبت بسبب ذلك ثورة عنيفة عمّت جميع أنحاء فلسطين وحملت حكومة لندن على إيفاد لجنة تحقيق استمعت إلى الحجج الدامغة التي أعدها سماحته لتلك اللجنة التي أفتت بحق المسلمين في ذلك الحائط. كما أوصت باتخاذ التدابير الكفيلة باستمرار وصاية المجلس الإسلامي الذي كان يرأسه سماحته على ذلك الحائط المقدس كما أوصت أيضا بانتهاج سياسة من شأنها أن تزيل مخاوف الشعب الفلسطيني من مخطط سياسة الوطن القومي اليهودي. وكانت قضية فلسطين في منذ بدايتها تكاد تكون قضية إقليمية غير أن جهود سماحته الجبارة قد أمتها عربيا ودوليا حتى أصبح العرب في جميع أقطارهم ينظرون إلى عبقرية سماحته السياسية العربية كأنها عبقرية نبي بعث لإيقاظ الأمة العربية من سبات قرون طويلة فوقف جميع مقوماته لرصد أدوار المؤامرة واتخاذ أجمع الوسائل لصددها ومقاومتها وليس صحيحا ما أشاعه بعض المغرضين من أن سماحته رحمه الله كان ينفرد برأيه دون استشارة أحد من إخوانه المخلصين. فالحقيقة أن سماحته رحمه الله كان وكأن في جوفه آلة سحرية يميز بها كفاءة كل رفيق . من حيث تحمل المسؤولية . ومدى قدرته على الكتمان. ودرجة فاعليته الشعبية. ومستوى ذكائه وسعة خبرته واتصالاته. فكان رحمه الله يرى كل فرد من كان يتعاون معه بتلك الآلة الساحرة . فيحدث واحدا بأشياء ومواضيع لا يحدث بها غيره . ويحدث غيره بأشياء ومواضيع في حدود ثقته به. وكان كتوماً يسمع فلا يفشي سرا ولا يعيد قصة إلا إذا جاءت من مشبوه أو من شخص عادي الذكاء والشعبية وكان أهم ما كان يشغل باله أن يلم بما يدور في الخفاء سواء في الدوائر البريطانية العالية أو الدوائر الصهيونية وكانت له عيون كثيرة لم تخل أحيانا من عيون زائفة لكنه رحمه الله كان يحلل كل صغيرة وكبيرة تحليلاً عميقاً وأحيانا كان يستغني عمّن يشته بهم. وكثيراً ما كان يوجه أسئلة كأنها الجواب. وقلما كان يعرب عن رأيه النهائي إلا بعد أن يستمع إلى جميع من يثق بهم ومن صفاته البارزة أنه في حالة الشك في رأي كان يخلع عمامته ويضعها جانبا ثم يصوب نظراته الفاحصة من عينين زرقاوين يلمع فيهما بريق أشبه بلمعة كهربائية وهي علامة غضبه . وما هي الا رفة عين حتى يفتر حياه الوسيم عن ابتسامه فلا تدري أي ابتسامه رضى أم ابتسامه استهزاء.

الدول العربية وسماحة

ما من شك في أن معظم الدول العربية في تلك الحقبة من الزمن كان ظاهرها تأييد واعتزاز وتقدير إلى سماحته وباطنها حسد وشكوك وكانت شخصيته قوية مألوفة ذائع صيتها، فاذا زار أي قطر عربي بلا استثناء تصغر أمامها جميع الشخصيات الرسمية الأخرى، فتلك الحفاوة الجماهيرية منقطعة النظير التي كان يقابل بها خير دليل على ذلك، وكان يقابلها بتواضعه ووداعته اللذين كانا لهما مفعول السحر في نفوس الجماهير أينما حل. ليس في مقدور أحد أن ينكر أن معظم الدول العربية في تلك الفترة من الزمن لم تكن قد حققت استقلالها التام فكان لبعض الدول الكبرى تأثير سياسي عليها إلى حد ما، وكانت معظم الدول الكبرى تحت تأثير ضغوط الصهيونية العالمية فكانت تلمس في مقاومة المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني للصهيونية العالمية شذوذاً على طاعة الاستعمار الضالع في تأييد المخطط الصهيوني، ولذلك كانت معظم تلك الدول العربية آنذاك لا تملك القوة على معاكسة التيار الدولي الذي لم تكن سيطرته الفعلية قد تبخرت بعد في المنطقة، أي في منطقة الشرق الأوسط، فكان هنالك تفكير خفي في إزاحة الثقل السياسي الذي أوجدته مقاومة سماحته للمخطط الصهيوني الذي هو في واقع الأمر مخطط إمبريالي ضد الوجود العربي برمته، فكانت مساعدات الدول العربية لجهاد عرب فلسطين محدودة بحيث لا تفي بدعم حركة المقاومة المسلحة، واستمر المخطط الخفي والهمس الصامت بحثاً عن وسيلة تريح الدول العربية من أزمة سياسية، وتضع سماحة الحاج أمين الحسيني في مأزق تتركه يتصرف وفقاً لظروفه إلى أن تبلورت فكرة حكومة عموم فلسطين المشهورة، ولست ادعي سبقاً في الرأي إزاء هذا التبلور الطارئ إذ تفضل سماحته رحمه الله ودعاني للحضور إلى القاهرة بعد تأليف الحكومة المذكورة فلبيت الدعوة وكنيت في معيته في مقره وأطلعني على ما تقرر، وأبلغني أن مؤتمراً فلسطينياً عاماً سيعقد في غزة بعد أسبوع وكلفني بالحضور فاستأذنت من سماحته أن أزور معالي علي علوبة باشا وعبد الرحمن عزام وقد رافقني صديقي المرحوم أسعد داغر وبعد أن استمعت إلى ما قاله لي السيد عبد الرحمن عزام، اقتنعت أنها حيلة للتخلص من سماحته رحمه الله فعدت إلى مقره في الزيتون وقلت لسماحته أخشى أن يكون المصير كمصير ابن عباد يوم استنجد بملك المرابطين يوسف بن تاشفين وتمنيت لسماحته التوفيق واستأذنت بالعودة إلى بيت لحم برغم الحاج سماحته أن أكون في معينه بالسفر إلى غزة، ولم يكن لي أي تعليق غير ما ذهبت إليه حينذاك وقد جاءت النتائج المؤسفة تؤكد ما قرّر همساً.

موقف سماحته من الحكومة المنتدبة

يخطئ كل الخطأ من ينتقد مظهر سياسة المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني تجاه الحكومة المنتدبة فقد كان رحمه الله أشبه بالمصارع في ساحة المصارعة مع الإنكليز إذ كان يدرك أنهم كانوا يتربصون لشغل جهوده السياسية وتحركه الوطني العنيد. ولذلك كان لا بد له من إبراز مرونة السياسي الحكيم الذي يتجنب أن ينطح الصخرة برأسه فكان بعض خصومه يعدون لذلك تواطؤاً. وفي الحقيقة لم يكن موقفه رحمه الله إلا موقف الزعيم الواعي المقدر لأبعاد نفوذ الصهيونية العالمية على بريطانيا يومذاك. كما كان يدرك عن طريق معلومات سرية خاصة. أن الحكومة البريطانية تحاول أن تطفئ هذا المشعل العربي الوهاج جماهيرياً. والذي كان يقض مضاجعها ومضاجع الصهيونية العالمية. فلم يمكن الحكومة من أن تجد مأخذاً مشروعاً لإطفاء ذلك المشعل العظيم.

وعندما اعتدت الحكومة البريطانية على الشريعة الإسلامية بادعائها الحق في عزل رئيسها الأعلى كمفتي الديار الفلسطينية ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وحاصره الجيش البريطاني في بيته في حظيرة المسجد الأقصى. وهناك شعرت البلاد برمتها أنها فقدت القائد والزعيم وأنها لن تتخلى عنه مهما صعبت الظروف. وفي ليلة ظلماء استطاع أن يفك الحصار ويصل إلى بيروت سالماً ومنها إلى بغداد فألمانيا ومكث فيها حتى هزيمة هتلر حيث التجأ بعدها إلى القاهرة في ظلال الملك فاروق الذي أكرمه فاستعاد نشاطه السياسي. وكان يغذى المقاومة داخل البلاد بالسلاح والمال إلى أن تألفت حكومة عموم فلسطين وكان تأليفها مكيدة مقصودة ضد جهاد سماحته و ضد الشعب الفلسطيني الذي أخذ يؤمن بأن حليفه الوحيد هو اعتماداً على نفسه في الدرجة الأولى. وعرف كيف عليه أن يسخو بالتضحيات البطولية الجبارة استنكاراً لما يفعله العالم العربي. وسيظل ذكر سماحته المنارة الوهاجة العالمية في سماء الجهاد الفلسطيني إلى أن ترفرف رايته المقدسة. ويقام نصب من ذهب لذلك القائد العظيم والزعيم الأول الخالد رحمه الله وتعمده برحمته الواسعة. وفي الحقائق التي لا ترقى إليها الشبهات أن سماحته كان مسلماً ورعاً منفتحاً على العصر. فلم يسمع عنه أن عاقر الخمر أو شفى غير أهله. كما كان عفيف اللسان. ولم تكن لأية كلمة نابية مكاناً في حديثه أو نقده حتى أمام خصومه. وكان جدي المظهر دون عبوس. فتشعر بهيبة ووقار وأنت تقف أمامه. ولا يسعك إلا الإحساس بأنك أمام شخصية خارقة. وكان يفى بجميع فروضه الدينية في أوقاتها كالصلاة والصيام. كما كان يواظب على أداء واجباته الدينية والوطنية من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل وكثيراً ما كانت وجبة غدائه كأساً من اللبن مع شريحة من الخبز.

معركة ٢٨ آذار على طريق بيت لحم الخليل

اتصل بي صديقي المرحوم الدكتور حسين الخالدي الذي كان يشغل سكرتيرية اللجنة العربية العليا. في صبيحة ٢٤ نيسان ١٩٤٨ وأخبرني أن قافلة يهودية مؤلفة من أكثر من خمسة عشر مصفحة ستنتج نحو مستعمرة كفار عصيون الواقعة جنوب بيت لحم بالقرب من قرية بيت فجار فاستدعيت على الفور نخبة من رؤوساء العشائر وشبان بيت لحم وقضاها وأطلعتهم على خبر القافلة. وبعد التشاور تقرر ألا يتعرض لها أحد في طريقها إلى المستعمرة وعلى أن يحفر خندق مترين في مترين طولاً وعمقاً مقابل أرض جاسر وأن يكمن المسلحون في سفح الجبل المقابل للخندق انتظاراً لعودة القافلة فتجمع أكثر من مئة وخمسين مسلحاً من رؤوساء العشائر وشبان القضاء بلا استثناء. وتم الاتفاق على أن يحضر المسلحون القافلة بالرصاصة عند اقترابها من الخندق المذكور. حتى يستسلم من فيها لمصادرة أسلحتهم بلا قيد أو شرط. وفي نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر أطلقت طلّاع القافلة وانتظر المسلحون حتى اقتربت من الخندق فأخذوا يحطرونها بوابل من الرصاص نشبت بعدها معركة عنيفة استمرت حتى الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي وكادت ذخيرتنا أن تنفذ خصوصاً وقد حلقت طائرة يهودية فوق المعركة وأخذت تلقي القنابل على المهاجمين الأبطال. فاضطرت حينئذ أن أطلب نجدة من جهاز الجهاد العربي الذي كان يرأسها المجاهد الشهيد عبد القادر الحسيني والذي كان مقره في رام الله. فحضر تلبية لطلبنا المجاهد السيد كامل عريقات وبعض المجاهدين وقد قابلني في مكنتي في المجلس البلدي وسألني إذا كان لدينا قنابل فأخبرته أن ذخيرتنا تكاد تنفذ ولكننا قررنا الصمود حتى النصر.

المندوب السامي يتوسط لوقف المعركة

وفي منتصف تلك الليلة أوفد المندوب السامي المستر سمرست قائم مقام الخليل وقابلني في مكنتي في مجلس البلدية وقال لي أن المندوب السامي يطلب من أولي الأمر وقف المعركة والسماح للقافلة بالعودة إلى القدس فقلت له: لو جاء سيدنا عيسى ومحمد عليهما السلام فلن يستطيعا إقناع المهاجمين بوقف إطلاق النار حتى تستسلم القافلة. ولما شعرنا أن الفائدة من مواصلة المفاوضات عاد إلى القدس وأخبر المندوب السامي بما حدث.

وفي عصر اليوم التالي وصلت مفرزة من الجيش البريطاني وعلى رأسها ضابط بريطاني فاجتمع بي لدى وصوله إلى بيت لحم في مكنتي في المجلس البلدي وقال لي: أن لديه أوامر أن يفك الحصار عن القافلة بالقوة وألح عليّ أن أصدر تعليماتي للمهاجمين

بالتوقف عن إطلاق النار والسماح للقافلة بالعودة إلى القدس فأجبتته بأن الطريق إلى ميدان المعركة مزروع بالألغام وأن الوصول إليه خطر كبير جداً وإذا قررتهم إرسال مفززكم فإن المهاجمين ستمطرهم بالرصاص حتى آخر رجل منهم. ثم أخذت أحدثه بخطر الصهيونية العالمية ليس فقط على عرب فلسطين بل على الإنسانية جمعاء ودامت مناقشتي معه زهاء نصف ساعة. اقتنع على أثرها بنظريتي ومنحني أكثر من عشر صناديق ذخيرة دعماً للمعركة.

وفي الساعة السابعة مساء طلب مواجهتي شاب نحيف الجسم من شباب بيت لحم لا يتجاوز عمره التاسعة عشر. وهو من عائلة برزق / ثلجية وقال لي إني مستعد أن أحقق النصر إذا أمكن تزويدي بقنبلتين وثلاث زجاجات بنزين. فسألته وماذا ستفعل؟ قال إني سأنزل تحت إحدى المصفحات وأضع القنبلتين تحتها ثم أرش ما في الزجاجات الثلاث من بنزين فوقها وأشعل عود كبريت القيه تحت المصفحة وأهرب فوافقت على هذه المغامرة وزودته بما طلب وأرسلت معه شخصين من أثق بهما وخرج من عندي وأنا أدعو له بالتوفيق إذ كدنا أن نفقد كل ذخيرتنا ولم تمض نصف ساعة حتى دوى انفجار مزلزل حيث كانت المصفحة مقدسة بالقنابل والذخيرة التي أخذت تنفجر بشكل مرعب جداً وبعد دقائق أعلن قائد القافلة التسليم بلا قيد أو شرط فشكّلنا لجنة لتجريد القافلة من جميع أسلحتها وكان بين الأسلحة المصادرة: قطعة عجيبية أشبه بمدفع له رأس رجل. وكان عدد القتلى كبيراً واستولينا على مصفحتين وسمحنا لمن استسلموا أن يواصلوا سيرهم إلى القدس بحراسة رجالنا وقد وزّعت المصفحات على مشايخ العشائر الأبطال واحتفظت بواحدة لبلدية بيت لحم وقد كلفتنا هذه المعركة نحو ألف وخمسمائة دينار وبقي علي دين من أصل هذا المبلغ ٣٠٠٠ جنيه دفعها لي في القاهرة المغفور له سماحة الحاج أمين الحسيني لقاء وصل موقع منه. وكانت هذه المعركة أكبر معركة خاضها مجاهدو فلسطين. وفي المساء أقيمت مأدبة عشاء فخمة لمنات من المجاهدين الذين اشتركوا بها وقد عادوا إلى المجلس البلدي ينشدون الأهازيج والأناشيد الوطنية الحماسية. ولا بد أن تفتخر فلسطين بمثل هذه البطولة العريقة في جيلنا الصاعد وإلى يوم النصر الأكيد.

١٤ أيار ١٩٤٨ خروج الإنكليز من فلسطين

كانت إدارة الانتداب البريطانية قد أعلنت أنها ستسحب من فلسطين يوم ١٤ أيار ١٩٤٨. وقد رفضت أن يحل مكانها سلطة دولية. تمهيداً لإشاعة الفوضى واختلال الأمن بصورة متمردة وتسهيلاً للعصابات الصهيونية المدربة والتي زودتها إدارة الانتداب بالكميات الوفيرة من مختلف الأسلحة والذخيرة كما تعمدت أن تتجاهل الأمم المتحدة التي انتدبها وصية على البلاد إذ كان من أولى واجباتها قبل أن تنسحب من البلاد التي كانت بمثابة أمانة دولية أوكلتها بها الأمم المتحدة. كان واجبها الأول أن تتخذ ما تراه

كفياً بتنفيذ مقرراتها الدولية ولكن الإدارة المنتدبة التي كانت تمثل سياسة لندن التي غرست جرثومة السرطان الصهيوني في جسم الأمة العربية. خرجت وهي مطمئنة أن حرباً شعواء تدق طبولها على أبواب فلسطين إذ كانت تعلم أن فلسطين يومئذ كادت تكون بلا قيادة حاسمة كما أن العرب لم يكونوا يملكون إلا بعض أسلحة قديمة لا قيمة لها.

وقد شعرت يومئذ بمسؤولية تاريخية عظيمة إذ كنت رئيساً لبلدية بيت لحم. فرأيت من أولى واجباتي القومية، أن أوحّد قضاء بيت لحم المؤلف من العشائر وعددها يتجاوز الخمسة عشر ألف نسمة ومن بلديتي بيت جالا وبيت ساحور ومجموعة قرى القضاء بواسطة مخاتيرها وشبابها. فألفت حامية مسلحة من أفراد العشائر البواسل كما أعددت لهم ساحة خاصة مقابل دار البلدية مزودة بالمأكل والمشرب والقهوة والسكر والسجاير وكل ما يحتاج إليه. كما أعددت حامية مسلحة من نخبة شبان بيت لحم الذين كانوا أشبه بالسباع حماسة وغيره واستعداداً للتضحية. وكلفت جميع أصحاب سيارات الأجرة التكسيات وكان عددها ثمانين سيارة. أن يكونوا مرابطين أمام المجلس البلدي. جاهزين لأية مفاجآت من العدو ثم اخترت عرفاء من الشباب ليرابطوا في مداخل المدينة ضمن منطقة البلدية. كما جهزت بقدر الإمكان مراكز ركب فيها أجهزة تلفونات: واحد منها في دير مار إلياس الواقع في نصف الطريق بين بيت لحم والقدس وآخر بالقرب من قرية الخضر وحوسان وآخر بالقرب من دير عبيد. وأما أفراد العشائر البواسل فكانت مهمتهم تطويق الطرق والسهل على الأمن العام وكان على رأسهم أصدقائي الخالصون الأوفياء، مشايخهم الذين كانوا دوماً يقضون معظم أوقاتهم معي في دار البلدية. وقد أدوا واجباتهم على أكمل وجه وأشجع مثال.

وما أن أطل صبح الخامس عشر من أيار. وبزغت شمس ذلك اليوم التاريخي - حيث كنت قد صحت ذلك اليوم في نحو الساعة الخامسة صباحاً. وتواجدت في مكثبي في رئاسة البلدية في موعد الدوام الرسمي - حتى كان ميدان المهدي الفسيح مكتظاً بمئات المسلحين من أبناء العشائر وشبان بيت لحم. فأخذوا بإطلاق الرصاص عفواً وقامت المظاهرات الشعبية في جميع مدن فلسطين بلا استثناء فارجت البلاد أمام عاصفة من الضجيج العاطفي. ولم أتدخل لمنع الشباب من المظاهرات في صبيحة ذلك اليوم. ولكن دعوتهم بعد الظهر إلى اجتماع عام ورجوتهم أن يتوقفوا عن هدر الذخيرة هباءً. إذ سنحتاجها قريباً وليست لدينا مصانع لتعويضها ولتزوّدنا بما نفقده. والمهم أن نكون يقظين ومستعدين لصد العدو في أية لحظة إذا حاول أن يدنس أرضنا ومقدساتنا. وبقينا على هذا الحال حتى يوم ٢٥ أيار ١٩٤٨ وهو يوم وصول الجيش المصري الباسل بقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز. وما يجب أن يسجل بكل فخر واعتزاز لتلك الفترة الخطيرة. ما أظهره جميع أهالي بيت لحم نساءً ورجالاً شبيهاً وشباناً من اتحاد وتضامن وسخاء في تلك الفترة العصبية وكنت أسهر مع نخبة من مشايخ العشائر ووجهاء المدينة وأعضاء المجلس البلدي عدا عن الشباب الشجعان الذين كانوا يقضون الليالي بطولها كالنمرور وعياً ونباهةً وكنت لا أفارق وأخواني المذكورين دار البلدية إلا بعد الساعة الثانية وأحياناً حتى مطلع الفجر. ذلك أن الأهليين من نساء ورجال كانوا ينامون مطمئنين طالما أنوار المجلس البلدي مشعة طوال الليل. أي كانوا يعتبرون ذلك ضماناً لأنهم وموضع ثقتهم وراحة نفوسهم.

وصول الجيش المصري البطل إلى بيت لحم

وصل الجيش المصري إلى بيت لحم في نحو الساعة التاسعة صباحاً يوم ٢٥ أيار ١٩٤٨. بقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز فخرجنا في مظاهرة كبيرة واستقبلناه استقبالاً حافلاً حميماً. ولم تمض ساعة واحدة على وصوله حتى ركزت المدفعية هدفها على مستعمرة رامات راحيل الواقعة على رأس تلة مطلة على منطقة بيت لحم. وما أن أذفت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى كانت تلك المستعمرة رمادا تذرّيه الرياح. وكنا قد أعدنا مأدبة عشاء كبرى تكريماً للبطل الشهيد أحمد عبد العزيز وجيشه أداءً للواجب بعد هذا النصر المبين. فاعتذر عنها رحمه الله وقال: إننا قررنا أن نفتح القدس ولذلك نرجو المعذرة فقلت له: إن تحرير القدس أهم عندنا بكثير من مجاملة عابرة أو تكريم حميم. فدعوت له بالتوفيق والنصر وعدت إلى مكنتي في المجلس البلدي.

بدء المؤامرة الكبرى على فلسطين

ما كدت أصل إلى مكنتي في المجلس البلدي حتى رن جرس التلفون وكان مخاطبي هو المغفور له الشهيد أحمد عبد العزيز الذي قال لي: أرجو أن ترافقني فوراً إلى مركز القيادة فاستقبلني بكل بشاشة وترحاب. ثم انتحى بي جانباً وأطلعني على برقية «شيفرة» صادرة عن وزارة الحربية المصرية وموقعة من الوزير حيدر باشا. تقول حرفياً: توقف عن الزحف إلى القدس إذ نقرر أن يكون الكيلو ٦ من طريق القدس بيت لحم الحد الذي لا يجوز للجيش المصري أن يتجاوزه. هذا هو نص البرقية التي قرأها الشهيد أحمد عبد العزيز. وعقب عليها بغضب وحنق قائلاً: إن الجيوش العربية الآن أصبحت في دوامة مسعورة وأخشى أن تكون هنالك مؤامرة يقصد منها هزيمة جماعية لجميع الدول العربية وهدف هذه الهزيمة تقديم فلسطين هدية مجانية إلى الصهيونية العالمية. وكان يبدو على وجهه حماسة وبطولة القائد الجسور. هذا وقد أعددت له وجميع ضباطه وأفراد جيشه عشاء فخماً كما أعدنا أيضاً عشاءً ترحيبياً لجنود المدفعية المرابطين في مراكزهم.

الإدارة المصرية في بيت لحم

عينت حكومة القاهرة أول حاكم عسكري مصري لقضاء بيت لحم من شهر أيار ١٩٤٨ فساد الأمن بصورة مطمئنة ومشرفة. وكان أول حاكم عسكري هو الضابط المثقف السيد محمد مجيد وقد نقل بعد أشهر وعين مكانه صديقنا العزيز لطفي واكد. وقد احتل الجيش المصري دار الحكومة في منطقة الدهيشة.

تموين بيت لحم

ألقت لجنة من جّار بيت لحم، وحددوا مبلغاً معيناً، يهدف إلى استيراد ما يحتاجه منطقة بيت لحم من مختلف المدن وقد زرت القاهرة قبيل عيد الأضحى بيومين من عام ١٩٤٨، وشحنت الكميات الضرورية من المؤن لقضاء بيت لحم التي كانت تصل في مواعيدها دون أي تأخير. فالتقيت صدفة بالمغفور له الشهيد عبد العزيز وسألته متى سيعود إلى بيت لحم قال: سأعود غداً وسأمضي العيد مع أولادي الجنود البعيدين عن ذويهم فلا بد أن أكون معهم في هذا العيد.

شهر رمضان المبارك ١٩٤٨

هلّ شهر رمضان المبارك وكان الشهيد أحمد عبد العزيز القائد المصري البطل عازماً على مغادرة بيت لحم في اليوم التالي فأعدت له ولجميع الضباط المصريين البواسل مأدبة إفطار في حديقة كنيسة المهدي حيث كنت أقيم. إذ نزحت عن مسكني الواقع على طريق القوافل العسكرية الصهيونية بإحاح القيادة المصرية وجميع سكان المنطقة وقد استمر الإفطار حتى موعد السحور. وعندما نهض رحمه الله لوداعنا مع ضباطه البواسل طلب من السيدة حرمي أن تصلي له في مهد عيسى عليه السلام إذ قال لها حرفياً: لقد تعرضت حياتي للخطر مرتين. وأخشى الثالثة فصلي لأجلي لأصل سالماً إلى القاهرة. وبالفعل نزلت حرمي بعد أن ودعنا إلى مغارة الميلاد. وأضاءت الشموع وابتهلت إلى الله أن يحفظ هذا القائد البطل بما قد يحمله إليه الغيب.

الفاجعة الكبرى بمقتل البطل « أحمد عبد العزيز »

في اليوم التالي من سفر المغفور له البطل أحمد عبد العزيز كان يزور بيت لحم وفد من المرشحات المصريات وكنت قد أعدت لهن مأدبة غداء في حديقة الكنيسة وكان يرافقهن حاكم بيت لحم العسكري محمد مجيد وفي أثناء الغداء جاء جندي وسلم

حاكم بيت لحم مظروفاً ففتحته وبعد أن قرأه وضع على عينيه نظارات سوداء ورأيت دموعه تتساقط على خديه فانتظرت حتى نهاية المأدبة وقمت لفوري وسألته ما حدا به للبكاء؟ فأخبرني أن البطل أحمد عبد العزيز قد قتل فكان وَقَعُ هذا النبأ كالصاعقة على رأسي إذ أحسست بدوار وذهول وحزن ولم أتمالك نفسي وسحّت دموعي كالطرر إذ فقد العرب عامة ومصر خاصة أعظم قائد وأشجع مناضل. رحمه الله وأسكنه فسيح الجنات.

الجيش العراقي في بيت لحم

وصلت مفرزة من الجيش العراقي الباسل إلى بيت لحم في عام ١٩٤٨ بقيادة الجنرال السيد عبد المسيح وقد تمركزت بالقرب من قرية بيت ساحور وقد شكى لي الجنرال عبد المسيح. من عدوان الصهاينة على مفرزته بإطلاق النار عليها ليلاً دون أن يسمح له بالرد على المعتدين وقال: لو كان الأمر بيدي لقدمت الوصي ونوري السعيد للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى لوقفهما السلبي الذي منعنا من أداء واجبنا القومي ولم تمض مدة شهرين حتى سحبت تلك المفرزة إلى جهة مجهولة.

٨٠٠ متطوع سوري يصلون إلى بيت لحم

وصل إلى بيت لحم في شهر أيار ١٩٤٨ نحو من ٨٠٠ متطوع سوري بقيادة السيد «أبو عبده» فوصلوا إلى بيت لحم في نحو الساعة السابعة مساءً فاستقبلتهم بما يليق بهم من حفاوة وتكريم وقال لي قائدهم السيد أبو عبده حرفياً: إننا لا نحتاج لأي شيء غير أننا قادمون من وادي السراي وقطعنا في السير زهاء خمس ساعات فكان سيراً مرهقاً فالرجاء أن تعد لنا مكاناً نستقر فيه. وطعاماً لهذه الليلة فقط. فكلفت نخبة من الشبيبة المتطوعة بجمع ما يمكن جمعه من الأهليين من خبز ومعلبات ولم تمض ساعة واحدة حتى توفر أكثر من أربعة آلاف رغيف خبز ومئات المعلبات من جميع الأصناف وقد أسكنتهم في دير الطنطور الواقع على تلة بالقرب من الكيلو أربعة على طريق القدس بيت لحم وقد ساهم هؤلاء المتطوعون الأبطال في كثير من المعارك التي خاضوها مع فرقة الجهاد البطل المرحوم إبراهيم أبو دية وقد غادرونا مكرمين بعد نحو شهر من إقامتهم في منطقة بيت لحم.

المغفور له الملك عبد الله

كثيرون ممن عرفوا المغفور له الملك عبد الله، لم يتسن لهم بلوغ أبعاد طموحه القومي، والنفاز إلى عمق نفسيته فقد فرضت على جلالته مفاجآت كانت بمثابة رجات أو صدمات نفسية أولها وأهمها شعوره بجراح معنوية عميقة الجذور بعد اقتلاع العائلة الهاشمية من الحجاز إذ كان جلالته دوماً يشعر بأنه لاجئ، فكان يشعر شعور المظلوم وكان يحس في أعماقه أن الواقع المفروض لا يقاوم إلا بمراعاة الظروف والظهور بالتكيف وفقاً لإجتهاداتها الغامضة، وكانت لديه مناعة نفسية، بحيث لم تقو تلك الظروف على بعث اليأس في أماله و آمانية، بل كان يعتقد أن للقدر تقلبات فإذا حان موعدها فقد يتبخر الضباب وتبرز الحقيقة ولعله رحمه الله كان يمارس سياسة المرونة اعتقاداً منه أنها أضع وسيلة للتغلب على تلك التقلبات، وكانت لديه فراسة عظيمة في اكتشاف معادن الرجال، ولكنه كان يلبسها ثوباً قشيباً من وداعته وحلمه فيبدو للكثيرين وكأنه بعيد عن دوران الأحداث في فلك الزمن. وكان رحمه الله يعلم مدى قوته وضعفه فلم يدع القوة إذا لم تكن في قبضة يده ولم يكن من الضعف حتى يتساهل في كرامته وما يعتقد حقا لأتمته، وأذكر عندما قررت الدول العربية إعلان الحرب على إسرائيل بقصد تحرير فلسطين يوم قررت أن تعهد إلى جلالته القيادة العامة قال لهم في قصر رغدان: قررنا ما تشاؤون فأنا معكم. وأرجح أن قرار الدول العربية يومئذ كان تحفظاً على محاذير تخشاهها الدول العربية، وقد اتهم رحمه الله بأنه سلم المثلث واللد والرملة وجاهل كل من اتهمه بأن الجيش يومذاك لم يكن تحت إمرة الملك عبد الله بل كان تحت إمرة كلوب باشا الذي كان يتلقى أوامره من لندن لا من عمان، ولندن - كما يعلم العرب أجمع - هي التي أعطت وعد بلفور وهي التي مهدت الطريق وسهلت جميع الوسائل لخلق إسرائيل وهي التي كانت تدفع رواتب ضباط وجنود الجيش العربي.

إني أدون حقائق ولست أقف نفسي محامياً ومدافعاً عن أحد ولكن الحقيقة يجب أن تعرفها الأجيال القادمة على وجهتها الواقعية. كان الملك عبد الله رحمه الله يتمنى أن يصبح سيداً على فلسطين فلو كان الجيش طوع أمره لاحتل فلسطين يوم ١٥ أيار ١٩٤٨ وتفادى الكارثة والعار اللذين حلا بالأمة العربية جمعاء. ولو حصل ذلك لأقيمت حكومة عربية فلسطينية لمن يؤمن بحقه ويؤمن بكفاءته على الوصول إلى القمة. قيل أن المغفور له الملك عبد الله اتصل ببعض زعماء إسرائيل، قد يكون ذلك صحيحاً، ولكنني أذكر أن جلالته دعا إلى الشونة معظم رؤساء بلديات فلسطين وسألهم رأيهم في «موادعة» الصهاينة، وكان الهدف من ذلك درء شر محتمل وهو شر التوسع الصهيوني إزاء الخور والضعف العربي. نحن اليوم في عام ١٩٧٩ والنكبة ما زالت تهز النفس العربية في كل أقطارها فقد ترك المغفور له الملك عبد الله مملكة عربية في الأردن يصح الاعتماد عليها في حالة دعم جماعي وفي حالة تبديد الأرجال والشكوك التي ما زالت متفشية بين معظم المسؤولين عن قيادة دفة السفينة العربية.

ولعل في سيرة المغفور له الملك عبد الله مدخلاً إلى اعتماد الأمة العربية على نفسها والإيمان بحقها في الوجود والإيمان بأن الحياة بدون حرية وكرامة هي الموت والزوال وحاشا للأمة العربية أن تصاب بنكسة الاستسلام والهوان لأنها أمة صنعت تاريخاً وخلقت حضارة ولا بد أن يعيد التاريخ نفسه بإذن الله.

كلوب باشا

كانت بريطانيا تمطر البلاد العربية والبلاد التي حُكمها بالعديد من كبار الموظفين الذين منهم من كان يعلن الإسلام كذباً وخداعاً ويتقن إلى حد ما اللهجات العربية المختلفة من مصرية وعراقية وبدوية. ويتظاهرون بممارسة كثير من العادات والتقاليد لتلك البلاد إيهاماً بأنهم أصدقاء حميمون وأن مهمتهم خدمة قضايا تلك البلاد بوفاء وإخلاص في حين أن هدفهم الحقيقي يكمن في التجسس وإيجاد البلية والإنقسام وإذكاء النفوس بالخرافات والبغضاء تمكيناً لمركزهم وتحقيقاً لأهدافهم الشريرة. فكان كلوب باشا واحداً من هؤلاء الموظفين الكبار وقد عهد إليه مهمة قيادة الجيش العربي الذي كانت بريطانيا تدفع جميع رواتبه ونفقاته. وكان يتقن إلى حد ما اللهجة البدوية وفي يده مسبحة تلعب أصابعه بحباتها وهو يتكلم. وكان يأكل المنسف بيده مقلداً البدو في كثير من عوائدهم وتقاليدهم.

وعندما ألقى المندوب السامي لفلسطين خطابه الوداعي التحذيري قبل انسحاب الجيش والإدارة البريطانية المنتدبة على فلسطين كانت الدول العربية قد أعلنت عزمها على دخول فلسطين لإنقاذ شعبها من الخطر الصهيوني وكان الناس يعلقون أملاً كبيراً على قوة الجيش العربي الذي كان تحت إمرة كلوب باشا. بأن يسارع قبل أي جيش عربي آخر في الزحف إلى فلسطين ليحتل القسم العربي الذي قررت الأمم المتحدة جعله قاعدة الحكومة العربية الفلسطينية أسوة بالحكومة الصهيونية. وفقاً لقرار التقسيم خصوصاً وأن المغفور له الملك عبد الله كان مقتنعاً بعدم قدرة العرب على إلغاء قرار التقسيم آنذاك.

وأود أن أسجل هنا حقيقة صارخة أمل أن تؤخذ على محمل الواقع المفروض البعيد عن ثورة العواطف والأهواء ذلك أن الجيش العربي في ذلك الوقت. لو كان يتلقى أوامره من المغفور له جلالة الملك عبد الله لزحف واحتل فلسطين برمتها غير أن الأوامر لم تكن تصدر من عمان بل كانت تصدر من لندن وكر المؤامرة الشيطانية على مصير الشعوب العربية بصورة عامة وعلى مصير الوجود الفلسطيني بصورة خاصة. وليس كلوب باشا مسؤولاً شخصياً عن عدم إصدار أوامره للجيش العربي باحتلال القسم العربي المقرر إقامة الحكومة الفلسطينية فوق أرضه لأنه كان يتلقى أوامره من لندن وليس من عمان.

كلوب باشا يدعوني لوليمة غداء

كان مقر كلوب باشا بعد انسحاب الإدارة البريطانية عام ١٩٤٨ في رام الله. فأوفد ضابطين ليدعوني إلى وليمة غداء في رام الله، فاعتذرت له شاكراً وذلك لاضطاعي بمسؤوليات تلك الظروف الخطيرة. ولم يمض شهر حتى زار مقر الجيش العربي في رأس بيت جالا فدعاني إلى حفلة عشاء مع لفييف من وجهاء قضاء بيت لحم فقبلتها شاكراً. وقد ذهبت وإخواني في الموعد المحدد إلى رأس بيت جالا حيث كان يقيم في خيمة كبيرة، وتناولنا العشاء على مائدته وبعد تبادل المجاملات التقليدية سألتني إذا كانت لدينا الأسلحة الكاملة التي نستطيع بها أن نواجه قوة العدو الصهيوني فأجبتته بأن الحكومات العربية كما هو معروف، قد قررت إرسال فرق من جيوشها للدفاع عن حق عرب فلسطين وهذه هي ضمانتنا التي نعتمد عليها بعد استعداد كل فلسطيني أن يضحي بحياته في سبيل الدفاع عن حق وجوده. ثم أراد أن يخلو بي فاعتذرت إذ قد تسبب أية خلوة تشكيكاً، ونحن في غنى عنه لأنه ليس بيني وبين عشيرتي وأهلي أي سر أخفيه. وهكذا انتهى الاجتماع بعد أن أكدت له أن الأمة العربية تعتبر إسرائيل حجر مقلع في يد من هم وراء إسرائيل وأن الأمة العربية التي تحدد القدر في مراحل عديدة ستجتاز مرحلة الخطر التي تهدد كيانها بنصر أكيد بإذن الله.

الجنرال لوكت في بيت لحم

عندما انقطعت المواصلات بين مصر وجنوب فلسطين بسبب الهجمة الصهيونية، طلبت القيادة المصرية مني أن أستنجد بجلالة المغفور له الملك عبد الله لتزويد الجيش المصري بالسلاح والذخيرة وذهبت فوراً إلى عمان حيث عرضت الموقف على جلالة الملك الذي أظهر كل استعداد لتلبية طلب القيادة المصرية لتزويدها بالسلاح والذخيرة وأمر أن يتوجه إلى بيت لحم الجنرال لوكت Loket «مع مفرزة من الجيش الأردني وقد أعددت للجنرال لوكت مسكناً في مدرسة الروم الأرثوذكس الواقعة مقابل دير الروم من الجنوب. وكان هذا الجنرال من مدمني الخمر ويطيّب له أن يظل عرباناً طيلة الليل في غرفته، وعندما حوصرت المفرزة المصرية في الفالوجة أعددتنا قافلة مؤن تحملها الجمال وترأسها الضابط المصري الشجاع السيد المعروف الخضري. وكان من بين المحاصرين المغفور له الشهيد الأكبر جمال عبد الناصر. فشقت تلك القافلة طريقها إلى الفالوجة عن طريق بيت جبريل ثلاث مرات متوالية دون أن يحس العدو بها وقال لي الجنرال لوكت بعد نجاح العمليات الثلاث: إنه لم ير ضابطاً أقدر ولا أشجع من الضابط المصري السيد معروف الخضري الذي قاد القوافل الثلاث بنجاح منقطع النظير.

لماذا تبنيت التدويل لمنطقة القدس

أشهد أمام الله والتاريخ أن جميع الجنود الذين دخلوا فلسطين في شهر أيار عام ١٩٤٨، من مختلف الدول العربية بلا استثناء، كانوا مستعدين أن يضحوا بآخر نقطة من دمائهم في سبيل الدفاع البطولي عن الوجود العربي الفلسطيني وقد أقنعتني محادثاتي ومحاوراتي الخصوصية مع مختلف قواد الجيوش العربية التي دخلت فلسطين، إذ لم يكن هناك انسجام سياسي إطلاقاً، حول أهداف كل دولة من الدول التي تبرعت بإرسال جيوشها للحفاظ على عروبة فلسطين. وكنت أشعر أمام هذه الحقيقة الصارخة، أن معنويات الشعب الفلسطيني بعد أن غاب ظلام الانتداب البغيض قد وصلت إلى الذروة خصوصاً بعد أن قررت الدول العربية أن تزحف بجيوشها لدعم الجهاد الفلسطيني في سبيل وجوده وحقه الطبيعي في السيادة القومية. وكان يوم دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في شهر أيار عام ١٩٤٨، يوماً تاريخياً إذ أيقن الشعب الفلسطيني أن سيادته قد تحققت وأن الراية الفلسطينية ستترفرف شامخة في سماء فلسطين من فوق قبة الصخرة المشرفة ومن فوق قبة قبر المسيح، إذ كان الشعب الفلسطيني شيباً وشباناً، نساءً وفتيات، على استعداد أن يجعلوا من دمائهم قربان الفداء على مذبح النصر والمجد إيداناً بإحباط المؤامرة الصهيونية العالمية الهادفة إلى اقتلاع الشعب الفلسطيني المكافح من أرض آبائه وأجداده، كمرحلة لتحقيق الحلم الصهيوني العالمي بتأسيس الإمبراطورية اليهودية الكبرى من الفرات إلى النيل تمهيداً لسيادة العالم عملاً ببروتوكولات حكماء صهيون.

وقد بدأت المعارك في جميع أنحاء فلسطين وأطل مشعل النصر كالشمس وهاجاً ونيراً، وكان الصهاينة يستعدون لإعلان الاستسلام بلا قيد أو شرط، وإذ بالنقراشي رئيس وزراء مصر، يلح على المسؤولين العرب بقبول وقف القتال إذ تعهد له سفير أمريكا بتأمين حقوق الشعب الفلسطيني، فكانت هدنة حزيران المشؤومة، النكبة التي وصمت وجه الأمة العربية بعار تاريخي لن يحويه إلا ثورة عربية جامحة من الفرات إلى النيل، تصلح عقارب التاريخ فتمتد يد الله جل جلاله لتبارك أوليائه المجاهدين في إنارة منارة إجيله وقرآنه الكريمين المقدسين!

وقد شعرت عندئذ أن الصهيونية العالمية قد لجأ عنقها من المشنقة وأنها ستعد العدة لتجتاح فلسطين برمتها وأن ليس هنا من منفذ إلا تدويل منطقة القدس التي تحبب الخطط الصهيوني العالمي القائل: إن إسرائيل بدون القدس إنما هي جسم بلا روح: وكنت أعلم علم اليقين أن هنالك شكوكاً ومخاوف ومحاذير، تساور معظم المسؤولين من العرب يخشون معها التعرض لهزات انقلابية عنيفة وأيقنت أن صيحة التدويل سيكون لها صدى عالمياً: إسلامياً ومسيحياً.

أمام لجنة التدويل

زارني رئيس لجنة التدويل في مكنتبي في المجلس البلدي لأخذ إفادتي في الموضوع فقلت له حرفياً: إنني كعربي أشعر بعرق الخجل يغزو جسمي من رأسي إلى أخمص قدمي لأنني أعتقد أن التدويل ليس إلا رديفاً للاستعمار وستصبح المنطقة وكراً للجاسوسية العالمية ولكن مع تقديري لهذا الخطر المستطير فإنه أهون عاقبة من أن تصبح فلسطين برمتها محتلة من الصهيونية العالمية. فإن نظام التدويل مع الزمن يمكن أن يتطور مع تطور الوعي العربي فيزول وتعود المنطقة عربية كما هي عربية تاريخياً وجغرافياً وبشرياً وبعد أن أنهيت إفادتي قال لي: إنني لم أفهم من قبل القضية الفلسطينية كما فهمتها الآن من إفادتك المفصلة وبينما كنت أودعه قلت له: ولكنني أخشى أن تتغلب الصهيونية العالمية على الأمم المتحدة. فيصبح قرار التدويل وريقة ميته وهذا ما سيعرض منطقة الشرق الأوسط إلى هزات قد تكون بمثابة الفيل الذي سيشتعل الحرب العالمية الثالثة. وقد لقيت دعماً من الحكومة الفرنسية بواسطة قنصلها العام في القدس المستر نيفل «Nevil» وكذلك من قبل مثل الفاتكان المونسنيور تستا «Testa» الذي - بعد أن فجر المجرمون الصهاينة منزله في محلة النبي عام ١٩٤٨ - نقل مسكنه إلى دير الفرنسيسكان في بيت لحم وكان يزورني باستمرار. وقال لي يومئذ قنصل فرنسا العام المسيو نيفل أن المسيو شومان وزير خارجية فرنسا يدعم صيحتك بكل اهتمام. وكان المغفور له جلالة الملك عبد الله غير راض عن جهودي المتحمسة للتدويل فأوفد كلاً من السادة: عبد الله التل الذي كان حاكماً للقدس ومعه السيد كميل شمعون لإقناعي بالعدول عن رأبي. ولكن شرحت لهما ما كنت أتوقعه من خطر الصهاينة الذي سيتحقق فيما بعد ولم أكن أدعي النبوة ولا قراءة الغيب في هذا الصدد ولكن الأحداث نفسها قد تشير بأصابع سوداء إلى مستقبل أسود. كذلك كان يدعم جهودي المطران الإنكليزي البروتستانتي في القدس الذي أرسل لي نسخة من مذكرة يؤيد فيها رأبي في التدويل كان رفعها للأمم المتحدة.

العدول عن التدويل

استمررت مكافحاً نحو سنتين في سبيل تدويل منطقة القدس وكان بعض زعماء فلسطين ولا أود ذكر أسمائهم. يشجعونني على المضي في سبيلي لقناعتهم بوجهة نظري. وفي عام ١٩٥٠ زارني قنصل فرنسا العام في بيتي ليلاً وقال لي بالفرنسية:

«*Mon Gouvernement Commence a Glicier*»

«إنني أسف أن أعلمك أن حكومتي بدأت تتراجع»

وبعد أيام زارني ممثل قداسة البابا المونسينيور تستا «Testa» رحمه الله وقال لي: نحن نخشى إذا استمررتنا في دعمك أن يقف الملك عبد الله ضد مصالحنا في المستقبل من الأماكن المقدسة. فدعوت نخبة من زعماء المدينة والقضاة وأطلعتهم على الوضع وقلت لهم: إذا كنتم توافقون أن أستمردعوماً بتأييدكم فأنا مستعد أن أضحي بحياتي وسأطلق آخر طلقة في سبيل الدفاع عما أعتقد من فوق قوس مهد السيد المسيح فكانت خلاصة الاجتماع أننا لا نملك القوة وحدنا لتنفيذ ما نؤمن به ونعتقد أمام تخلي من كانوا يؤيدونا عن مواقفهم. فلنعلن توقفنا عن المطالبة بالتدويل وزيارة جلالة الملك عبد الله لإبلاغه قرارنا فأخضعت مرغماً قرار الأغلبية الساحقة وأبلغنا جلالته وذهبنا إلى عمان حيث استقبلنا جلالته بكل ترحاب وبشاشة وقال لي: سأقلدك قلادة رفيعة الشأن تقديراً لجهودك فقلت لجلالته: قلادتي أن تنقذ فلسطين وأن تكون حرة تحت سيادة جلالته وأنزل الستار...

مؤتمر أريحا

عقد مؤتمر أريحا في ١٩٤٨/١٢/١ فحضر ممثلون عن مختلف مقاطعات فلسطين. وقد حضرت مع نخبة من ممثلي قضاء بيت لحم وشعرت أن مذكرة كانت قد أعدت مسبقاً فتلاها الأستاذ الشيخ الجعبري وهي تنص على وحدة الضفتين. وكان المغفور له جلالة الملك عبد الله جالساً على سطح العمارة مستمعاً ومراقباً لما يجري وقبل انتهاء المؤتمر وقفت وارتجلت كلمة قلت فيها: إن الوحدة هي هدف كل عربي حر والوحدة تعني المساواة في الحقوق والواجبات وإن ما تبقى من فلسطين أصبح أمانة في عنق جلالة الملك رائد هذه الوحدة التي نرجو أن تكون نواة للوحدة العربية الكبرى التي دعا لتحقيقها المجاهد الأكبر والشهيد الأعظم جلالة الملك حسين وأن الأيام ستتحدث عما ستنتجها هذه الوحدة بين الضفتين من آمال وأمانى والله المستعان.

رؤساء بلديات الجنوب يطلبون الانضمام إلى مصر

عقد رؤساء بلديات جنوب فلسطين مؤتمراً في قاعة مجلس بلدية غزة عام ١٩٤٩ وكانت القدس والمنطقة الشمالية مسيطر عليها من قبل الجيش الأردني وحت إدارة المملكة الأردنية الهاشمية. وكان سبب عقد هذا المؤتمر ذلك الفراغ الوطني الملموس وخطر الغزو الصهيوني المحتمل الذي كان يساور المسؤولين في الجنوب. وقد حضر هذا المؤتمر كل من رؤساء بلديات بيت لحم.

بيت جالا، بيت ساحور، الخليل، المجدل، بئر السبع وغزة. وقد انتخب المؤتمر صديقي الحميم المرحوم رشدي الشوا رئيس بلدية غزة رئيساً للمؤتمر. وبعد مناقشات طويلة في الموقف الخطير الذي كانت تجتازه فلسطين. قرر الوفد إعداد مذكرة لجلالة الملك فاروق، يشرح فيها وضعية البلاد النفسية وما تضرره أطماع الصهيونية العالمية من عدوان. ورأى المؤتمرون أن خير ضمانة لحماية جنوب فلسطين من الغزو الصهيوني هو ضمّه إلى مصر كوديعة إلى أن تنجلي الأمور. وقد انتخب الوفد كلاً من المرحوم رشدي الشوا وعيسى البندك للسفر إلى القاهرة، وتقديم المذكرة إلى المراجع المسؤولة. وبالفعل قد سافرت والمرحوم صديقي رشدي الشوا إلى القاهرة وبعد اتصالنا بوزارة الخارجية التي طلبنا بوساطتها، تعيين مقابلة لنا مع جلالة الملك فاروق والذي كان يومئذ في الإسكندرية. ورأت وزارة الخارجية أن نقابل معالي حيدر باشا وزير الدفاع ونقدم له المذكرة وهو بدوره سيرفعها لجلالة الملك. وقد ذهبنا في اليوم التالي إلى وزارة الدفاع وقابلنا حيدر باشا وقدمنا له المذكرة وبعد أن قرأها سر جداً من محتوياتها وأكد لنا أن جلالة الملك سينظر في طلبنا بكل اهتمام وتقدير وكانت الإدارة المصرية والجيش المصري يومذاك مسؤولين عن جنوب فلسطين. وفي عام ١٩٥٠ تم توقيع اتفاق بين مصر والأردن تخلى مصر بموجبه عن الجنوب للمملكة الأردنية الهاشمية.

المغفور له الملك عبد الله يتدبني مبعوثاً خاصاً لجلالة ملك اليونان وقداًسة البابا

انتدبني المغفور له جلالة الملك عبد الله في شهر آب من عام ١٩٥٠ أن أقوم برحلة إلى أثينا لمقابلة المرحوم جلالة الملك بول ملك اليونان لأشرح لجلالته ما قد يلحق بالأماكن المسيحية المقدسة من خطر داهم فيما لو دولت منطقة القدس فوصلت أثينا في آب ١٩٥٠ وتشرفت بمقابلة الملك بول يوم ٢ آب في قصره الصيفي ففضل واستقبلني بكل بشاشة وقدمت لجلالته بعض التحف الصدفية التقليدية من شغل بيت لحم ثم شرحت له مفصلاً أخطار التدويل على الأماكن المسيحية المقدسة وعلى السلم الدولي إذ قد يصبح عهد التدويل مركزاً للتجسس الدولي ويعطي للصهاينة الفرصة المناسبة لتوطيد وجودهم فوعدني لجلالته أن تقف حكومته مؤيدة لوجهة نظر المغفور له جلالة الملك عبد الله، فشكرته وبعد يومين توجهت إلى روما.

ومن الحزن أن بعض المفسدين وشوا بي للمغفور له الملك عبد الله بأنني لم أقم بمهمتي بأمانة ووفاء مما حمل رئيس وزراء اليونان أن يرسل للمغفور له جلالة الملك عبد الله الكتاب التالي: "ضاع في السفارة".

في الفاتكان

وصلت الفاتكان في ٨ آب ١٩٥٠ وعين لي موعد لمقابلة قداسة البابا في اليوم التالي. فحضرت سيارة خاصة من الفاتكان وحملتني إلى مكتب سكرتيره الخاص الكاردينال تارديني «Tardeny» فقابلني بكل ترحاب وقال لي:

«إن قداسة البابا يطلب منك أن تمارس فضيلة التضحية. فأرجو أن تشرح لي مهمتك فأنقلها لقداسته ذلك أن اليهود قد يفسرون مقابلتك لقداسة البابا تفسيرات نريد تجنبها وقد رددت عليه بكل أدب قائلاً: إني أمثل جلاله الملك. بكتاب موقع من جلالته ويؤسفني أن يعتذر قداسته عن سماع مندوب جلاله الملك.»

وأيضاً وشى المفسدون بأني لم أؤد مهمتي بأمانة مما حمل حاكم الفاتكان أن يرسل رسالة اعتذار وتأكيد لوفائي وإخلاصي لمهمتي. والرسالة موجودة في القصر الملكي العامر في سجل موضوع تدويل القدس.

في الأمم المتحدة

انتدبني المغفور له جلاله الملك عبد الله. أن أكون عضواً في وفد الأردن إلى الأمم المتحدة الذي كان يرأسه الأستاذ أحمد طوقان وذلك عام ١٩٥٠ فتشرفت بمقابلة جلاله الملك بمعية المرحوم فوزي باشا الملقى وأحمد بك طوقان بقصد وداع جلالته والتزود بآخر التعليمات وكان الاجتماع يوم ١٨/١٠/١٩٥٠ في مكتب جلاله الملك الخاص. فتلا علينا. كتاباً وارداً لجلالته. خلاصته: إن "بن غريون" يرى أن المحادثات التي جرت، لا فائدة منها إذ يتهم الأردن بنقض المادة الثامنة من اتفاقية الهدنة التي أبرمت في رودس. فقال جلالته رحمه الله: لقد أصبحنا الآن. كما كنا سابقاً. وقد تحدثت مع ممثلي العراق أننا على استعداد لجولة ثانية إذا كانوا عازمين على ذلك. وطلب جلالته رحمه الله أن نعمل بكل ما في إمكاننا لإجراح مطالب الأردن. فودعنا جلالته وانتقلنا إلى بيت المرحوم فوزي الملقى رئيس الوزراء يومذاك لوداعه. ومن ثم توجهنا إلى المطار. حيث كان معظم أصحاب المعالي الوزراء والأعيان والنواب في وداعنا وتحركت بنا الطائرة نحو الساعة الثامنة والنصف صباحاً فوصلنا دمشق بعد ساعة فكان في استقبالنا السيد غالب الكيالي. مندوباً عن رئيس الوزراء وفي الساعة الثانية عشرة والدقيقة العشرين ركبنا الطائرة إلى روما.

الوصول إلى روما

وصلنا إلى روما في نحو الساعة السادسة والنصف من بعد ظهر يوم الأربعاء الموافق في ١٩٥١/١٠/١٨ وكان في استقبالنا السيد آدمون روك الذي دعانا إلى العشاء في المفوضية. وقد اتصل بي تلفونياً أثناء العشاء. السكرتير العام لوزارة الخارجية الإيطالية. وسأل فيما إذا كنا نحتاج إلى أية خدمة. فشكرته باسم الوفد على عنايته. وأخبرنا السيد آدمون روك أن قداسة البابا يسعى لدى ممثل مصر في الفاتكان لتشكيل جبهة مسيحية إسلامية هدفها مقاومة الشيوعية. وأشار السيد روك بأهمية تأسيس مفوضية أردنية في الفاتكان.

وفي صباح الخميس الموافق ١٩٥١/١٠/١٩ زرنا كنيسة مار بطرس برفقة السيد آدمون روك فشاهدنا الصفوف المتراسة من حجاج الأراضي المقدسة يحملون الأعلام والصلبان وينشدون الأناشيد الدينية وقد زينت الكنيسة بزينة دينية باهرة وكان حرس الفاتكان بألبستهم التقليدية يحافظون على النظام وبعد انتهاء زيارتنا توجهنا فوراً إلى المطار. حيث ركبنا الطائرة المتوجهة إلى لندن وكان في وداعنا السيد آدمون روك الوزير المفوض للملكة الأردنية الذي عاملنا بكل كرم وحفاوة. وقد كنا نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً على ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم في الجو فوق جبال الألب الشاهقة المكسوة بالثلوج وكان الجو جميلاً والشمس ساطعة بأنوارها الخلابة. فوصلنا إلى لندن حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٩٥١/١٠/١٩ حيث كان في انتظارنا سمو الأمير عبد المجيد سفير المملكة الأردنية الهاشمية وهاني هاشم. ثم توجهنا إلى السفارة. وقد شكنا الأمير عبد المجيد من قلة المخصصات التي خُذ من نشاطه الإعلامي. وقدم لنا سمو الأمير السيد كمال حمود الملحق العسكري وزرنا بمعية الأمير نادي الضباط الأردنيين وكان عددهم يوم ذلك تسعة وستين ضابطاً. كلهم يتخصصون للعلوم العسكرية كما زرنا محطة اللاسلكي المجهزة في دار السفارة وهي المحطة الوحيدة من نوعها بين جميع السفارات العربية يوم ذلك. وتتصل مباشرة بعمان. وبعد أن قدم لنا سمو الأمير الشاي قمنا بجولة في أحياء لندن رافقنا خلالها السيدان هاني هاشم وعمر التاجي وبعد نصف ساعة توجهنا إلى المطار ودعونا كلاً من سكرتيري السفارة السيدين هاشم والتاجي إلى العشاء معنا.

أعلن المذيع أن الطائرة ستتحرك بنا إلى نيويورك في تمام الساعة التاسعة مساءً. فودعنا السيدين الذين تفضلاً بمرافقتنا في جولتنا الخاطفة لأحياء لندن. وقد أخذت محركات الطائرة تدوي معلنة بدء الرحلة. وأخذت الطائرة تدرج على أرض المطار مسافة طويلة اختباراً لسلامة الموتورات كما هي العادة. وفوجئ جميع الركاب بوجوب النزول من الطائرة إلى رصيف المطار إذ تبين أن خللاً قد ظهر في بعض الموتورات وأن إصلاحه يتطلب مدة نصف ساعة على الأقل فعدنا إلى مقصف المطار وبعد دقائق أُبلغنا بأن الإصلاح يتطلب ثلاثة ساعات على الأقل وأن الطائرة ستتحرك بنا إلى نيويورك في تمام الساعة الثانية عشرة منتصف الليل. وبالفعل سعدنا

إلى الطائرة في الموعد المضروب وقال المذيع إننا سنبقى في الجو لمدة عشر ساعات لوصول كاندر«مطار في جزيرة نيوفاوندلاند» وبالفعل هبطنا في المطار المذكور بعد عشر ساعات وخمس دقائق وكانت ساعة الجزيرة السادسة صباحاً من يوم الجمعة الواقع في ١٩٥٠/١٠/٢٠ وكان الهواء بارداً مثلجاً وبعد أن تناولنا طعام الفطور امتطينا الجو في الساعة السابعة صباحاً متوجهين إلى نيويورك. وقد تعرفت في الطائرة على ممثل الهند في اليونيسكو فسألته إذا كان يعرف المستر رو مثل الهند في مجلس الأمن فقال: إنه صديقي الحميم فزودني بكتاب خاص أطلعت زميلي السيد أحمد طوقان عليه، وقد فهمت منه أنه سينضم إلى وفد الهند.

في نيويورك

وصلنا نيويورك في الساعة الحادية عشرة صباحاً حيث كان في استقبالنا سفير الأردن الدكتور يوسف هيكل. ونزلنا في فندق شيراتون حيث استرحنا حتى بعد الظهر. وفي الساعة السابعة مساءً، اتصلت بمكتب الوفد المصري وسألت عن صديقي المرحوم الدكتور محمود عزمي ورجوت المكتب أن يكلفه الاتصال بي عند عودته من "ليك ساكسس". وبالفعل اتصل بي في الساعة السابعة والنصف مساءً، وتواعدنا أن نلتقي بعد العشاء نحو الساعة التاسعة مساءً. حضر إلى الفندق وأخبرني أن مشروعاً جديداً تحدثت به بعض دول منظمة الأمم المتحدة والمشروع يتعلق بمصير القدس واسمه تحييد القدس. وقال لي الدكتور عزمي: إن جوهر هذا المشروع هو تهويد القدس، فحدثته عن خطر التدويل وقلت له: إن التدويل أيضاً قد يصبح تهويداً خالصاً لما للصهيونية العالمية من نفوذ ملحوظ وكبير. ثم أخبرني أن دولة مصطفى النحاس باشا الذي كان يومئذ رئيساً للوزارة المصرية، قد استدعى السفير البريطاني في القاهرة وطلب إليه، أن يكلفه إبلاغ حكومته أن مصر تطلب جلاء القوات البريطانية عن مصر فوراً، وإذا ترددت بريطانيا في تقديم الأسلحة المتعاقد عليها للجيش المصري، فإن مصر ستبتاع ما تحتاجه من أسلحة من الاتحاد السوفياتي.

الأزمة الأردنية المصرية

ثم حدثته في موضوع الأزمة القائمة في العلاقات بين الأردن ومصر ووجوب العمل على تسويتها. فقال: إن مصر ضد هذه التسوية، الآن إذ لا يثقون بالملك عبد الله، ثم حدثته في موضوع قبول الأردن عضواً في الأمم المتحدة، فقال: إن الروس هم العقبة وأما الدول العربية فإنها تؤيد ذلك ثم وعدني أن يحدث الدكتور محمد صلاح الدين الذي كان يشغل وزارة الخارجية في ذلك الوقت كما وعدني أن تستمر اجتماعاتنا دون انقطاع.

إجتماعي بوزير خارجية مصر

اجتمعتُ بالسيد الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية في مصر يوم الخميس الواقع في ١١/١٢/١٩٥٠. في تمام الساعة العاشرة والنصف صباحاً في مكتبه في فندق بلازا. وقد قابلني على المدخل صديقي الحميم المرحوم الدكتور محمود عزمي. وقال لي: إن الوزير في انتظارك. واصطحبني أحد الموظفين إلى مكتبه. حيث لم تمض بضع دقائق حتى دعيت لمقابلة الوزير وقد استقبلني بكل بشاشة وترحاب وجلست مقابله فافتتحت الكلام بما يلي حرفياً:

«ليس في وسع أحد أن ينكر. أن مصر في مركز ممتاز في البيئة العربية ونحن نعتبرها. الشقيقة الكبرى. فإذا ما توجهنا إليها. بالعتاب أو بالرجاء. فإن الشقيق الأكبر مفروض عليه ألا يجافي أشقائه الصغار إذا بدا منهم اجتهاد أو رأي سواء أكان مصيباً أو خاطئاً. فعلى الشقيق الأكبر مهمة جمع الشمل. وفتح ذراعيه إيداناً بوجود قلب مفتوح. وأود أن أصارح معاليك أنني لست زعيماً ولا وزيراً فما أنا إلا عربي من أفراد الشعب. تعودت أن أفرح لنعم الله. ولا كبير عندي إلا الله عز وجل. ولذلك أود أن أصارح معاليك بموضوع قومي عربي هام. إني أعتقد أن قضية فلسطين هي قضية العالم العربي برمتها لأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الأمة العربية أرضاً وبشراً وتاريخاً وأنها قضية تتأرجح في دوامات خطيرة لن ينجو منها أي قطر عربي. وفلسطين لا تتسع لأمتين: أمة وريثة للوجود العربي والثانية تسعى لإقتلاع هذا الوجود كمرحلة لتصفية الأمة العربية برمتها. فإما أن تبقى فلسطين عربية للعرب وهذا رهن باخاد كلمة العرب أجمعين. أو أن تغتصب لتصبح رأساً لإمبراطوية يهودية في قلب العالم العربي. إذا تخاذل العرب وتفرقت جهودهم وتمزقت صفوفهم. وقد حدثت مع المسؤولين في عمان قبل سفري بوجود السعي المثمر لإزالة سوء التفاهم وتهيئة الجو لاجتماع بين المسؤولين من القطرين الشقيقين. ولا بد أن معاليكم قد اطلعت على ما قام به دولة سعيد باشا المفتي رئيس الوزراء حيث أجرى استفتاء شعبياً للشعب الفلسطيني في صدد مفاوضات أولية مع الصهاينة. فقرر الشعب بالإجماع رفض أي نوع من التفاوض مع المغتصبين. ولقد أشار الأميركيون والإنجليز على جلالة الملك بوجود الاستقرار في الشرق الأوسط وقالوا لجلالته: إن هذا الاستقرار لن يتم إلا بتسوية مع الصهاينة. فلما أدرك جلالته أن الشعب الفلسطيني مجمع على رفض الاستسلام كما أدرك جلالته أن هنالك عناداً أو عجرفة صهيونية تغمرها غطرسة شرسة. أعلن جلالته أنه لن يمد يده للمعتدين. هنا قال معاليه: الحمد لله. فقلت له: إن اخاد العرب سيبقى خيالاً ووهماً إذا انحرفت أية دولة عربية عن هذا الخطة القومي. ومن رأيي المتواضع. أن تفكروا بالوسيلة المناسبة والطريقة الكريمة لدعوة رئيس وزراء الأردن على أساس فتح صفحة جديدة من الوئام والتفاهم الأخويين. فقال معاليه: إني أرحب بهذه الفكرة ترحيباً حاراً وسأعمل على تنفيذها بعد عودتي إلى مصر وإني متفق معك على جميع الخطوات العامة التي ذكرتها. ثم قال هناك خلافات بيننا في وجهات النظر. وسنطرح غداً أمام منظمة الأمم المتحدة بعض القضايا. فلنتفق عليها منذ الآن فقلت له: لا بد أن تقدر وتدرك معاليك أنني أعجز

من أن أدعي صلاحية تغيير أو تبديل سياسة حكومتي. كما أعتقد أن ليس هنالك أي وفد عربي يستطيع أن يزعم أنه يملك تلك الصلاحية. وإذا سمحت لي. فأني أرى أن تظل الخلافات في وجهات النظر حيث هي الآن إلى حين عودتك إلى مصر. إذ إن مهمتي الرئيسية أن أسعى لتصفية الجو عن طريق ما اقترحته عليكم بدعوة رئيس وزراء الأردن الذي يملك المسؤولية والصلاحية. ثم قال لي: إذا قنعت بخطر التدويل فأني مستعد أن أرفضه دون الرجوع إلى حكومتي ثم قال: لنفترض أننا اتفقنا مع الحكومة الأردنية وحدث ما يسبب اختلافاً جديداً. فهل يكون انفراد الأردن وحدها بالقرار هو الصواب؟ أم رأي الأكثرية هو الصواب؟ ولن نحتكم حينها؟ فقلت له: للمصلحة العربية العليا: فقال: أجدت. ثم قال كيف يمكن أن نصل إلى تعريف هذه المصلحة؟ فقلت له: إن المنطق السليم واحد لا يتغير فإذا حللت الأمور خليلاً عميقاً وجدياً. فرأي الأكثرية عندئذ هو القانون الطبيعي الذي ينصاع له المسؤولون فوضع يده بيدي وقال: نحن على هذا متفاهمون. ثم قلت له: خذ موضوع القدس الجديد فوفدنا لم يقبله ولم يرفضه بعد. ولكن زملائي وأنا سنستوحي ضمائرنا كي لا نتخطى المصلحة العربية العليا ومن ثم سنبرق لحكومتنا برأينا ثم قلت له: لقد أخذت من وقتكم الثمين حصة كبيرة فأرجو العذرة. كما أرجو أن نلتقي بصورة دائمة شاكراً لعاليتكم ما قابلتموني به من لطف وكرم وأخلاق وإلى اللقاء.» وطلب مني أن أكتب لرئيس الوزراء خلاصة وافية عن محادثاتنا هذه وقد فعلت في حينه.

وزير خارجية مصر يقول: لا تنسوا أن إسرائيل وجدت لتموت

أخبرني صديقي المرحوم الدكتور محمود عزمي أن معالي وزير خارجية مصر الدكتور محمد صلاح الدين قال: لا تنسوا في مقابلة رسمية عندما قال هذا الأخير لوزير مصر أن إسرائيل وجدت لتبقى. فرد عليه وزير خارجية مصر قائلاً: إن إسرائيل خلقت لتموت وإنما سنظل ساكتين إلى أن تموت ولن نعترف بها إطلاقاً كما لن نقدم على أية تسوية معها.

إشاعة تفاوض الوفد الأردني مع الأمريكيين والإنكليز واليهود لإيجاد حل لمدينة القدس

قابلني السيد جورج صالح الخوري يوم ١٩٥٠/١١/١٥ في الأمم المتحدة وقال لي: إن هناك إشاعة بأن الوفد الأردني يفاوض الأمريكيين والإنكليز واليهود سرا للوصول إلى حل لمصير القدس. فقلت له: إنها إشاعة زائفة فقال: من الضروري أن تكذبها على المذيع. فأعددت كلمة وأذعتها من مذيع الأمم المتحدة وجاء نصها كما يلي: بصفتي عضو في الوفد الأردني إلى هيئة الأمم المتحدة. أحمل

مسؤولية كل كلمة سأدلي بها دحضا للإشاعات الزائفة القائلة: إن الوفد الأردني يفاوض سراً مع الأمريكيين والإنكليز واليهود. بغية الوصول إلى حل لمدينة القدس. إن هذه الإشاعات عارية عن الصحة وإنما لن نقبل أي حل يتعلق بمصير القدس إذا لم يحقق السيادة العربية على جميع الأحياء العربية المغتصبة من اليهود ليعود إليها أهلها وسكانها العرب الذين لا يقل عددهم عن ١٥٠ ألف نسمة. وإنني أعتبر أي اتصال باليهود أو غيرهم في هذا الصدد خيانة كبرى لا يُقدم عليها إلا كل نذل لا يفقه معنى الكرامة ولا يدرك قيمة نفسه. وإنما نقاوم التدويل حقيقاً للسيادة العربية. وإن الأردن هو صاحب الكلمة العليا في هذا الصدد لأن الأردن هي السلطة التشريعية التي تحمي القدس العربية وستحميها إلى الأبد وستحقق المملكة الأردنية للعرب كل ما يصبون إليه من آمال في الأراضي المقدسة التي هي أمانة الأجيال. وقد سرت جميع الوفود العربية من هذا التصريح ورجت أن يدلي بمثله السيد أحمد طوقان فقلت لهم: إنه سيدلي بتصريح أشد منه. ثم قابلني مدير القسم الفرنسي في إذاعة الأمم المتحدة. وطلب مني كلمة بمناسبة قرب حلول عيد الميلاد على أن تكون باللغة الفرنسية وحديثها عن القدس فوعده أن أقبله في اليوم التالي في هيئة الأمم المتحدة.

اجتماعي بعزام باشا

التقيت بعزام باشا الأمين العام للجامعة العربية في بهو الأمم المتحدة يوم ١٧ / ١١ / ١٩٥٠ فقلت له: يبدو لي أن وجود الوفود العربية في الأمم المتحدة يكاد يكون ابتداءً وهدراً للكرامة ونحن الذين صمدنا أمام الموت دفاعاً عن وطننا المقدس. وأرى أن الوفود العربية تقف كالمستعطي فيصفحون. ولعلك كأمين عام للجامعة العربية تشعر بمثل هذا الشعور وتعمل على تقوية أسس الجامعة على قواعد قومية نضالية عميقة الجذور. وكان يستمع إلى هذا الحديث الدكتور هيكل سفير الأردن في الأمم المتحدة.

برقية تطلب عودتي فوراً

اتصل بي السيد أحمد طوقان في صبيحة يوم ٢٣ / ١١ / ١٩٥٠. وأخبرني أنه تلقى برقية من الحكومة تقول: بلغوا عيسى البندك سرعة عودته ليشرح للحكومة آخر التطورات. فأظهر طوقان امتعاضاً وقال: سأبرق مستوضحاً فإن البرقية غامضة. فمانعت. إذ كنت أعلم أن الوفد البريطاني كان قد أرسل برقية إلى "أيدن" يشكو من وجودي في الوفد وهذا كان سر البرقية المشار إليها.

إلغاء كلمة العيد من إذاعة الأمم المتحدة

حضرت سيارة من الأمم المتحدة يوم ١٩٥٠/١١/٢٥، لنقلي إلى إذاعة الأمم المتحدة في ليك ساكسس لإلقاء كلمة العيد. وكان الجو عاصفاً والأمطار مستمرة كأموج البحر وكانت السيارة تتأرجح كمركب صغير تتقاذفها الأمواج الصاخبة فوصلت بعد ساعة وسجلت كلمتي بالعربية والفرنسية وبينما كنت أسجلها بالإنكليزية انقطع التيار الكهربائي وصدرت الأوامر بإخلاء جميع الدوائر إذ خُشي عليها أن تقتلعها الرياح المزمجرة المدوية كما خشي أن يجرفها طوفان المياه فعدت إلى نيويورك حيث وصلتها بعد ساعة.

مغادرة نيويورك

وصلت نيويورك في ١٩٥٠/١١/٢٨ في الساعة التاسعة صباحاً بعد أن ودعت زميليّ الكرّمين أحمد بك طوقان ويوسف هيكل، وركبت الطائرة نحو الساعة العاشرة والنصف، وعند وصولنا إلى بوسطن تعطل أحد المحركات واضطررنا للمبيت ليوم ثان حيث حملتنا طائرة أخرى إلى باريس ومن ثم إلى دمشق فوصلناها يوم ١٩٥٠/١٢/١ في الساعة الثانية بعد الظهر. برحت دمشق في السيارة متوجهاً إلى عمان وفي يوم الجمعة الواقع في ١٩٥١/١/٨، قابلت جلالة الملك عبد الله بمعية المرحوم سمير الرفاعي وفي يوم ١٩٥١/١/٩، عدت إلى مقري الدائم في بيت لحم.

تعييني وزيراً مفوضاً في مدريد

انتخبت رئيساً لبلدية بيت لحم عام ١٩٣٤ وأعيد انتخابي حتى عام ١٩٥١ وقد استطعت وزملائي الكرام أعضاء المجلس البلدي أن نفتح كثيراً من الشوارع وأن نمد أسلاك الكهرباء للنور في جميع منطقة تنظيم البلدية التي تزيد عن عشر كيلومترات. وكان المجلس البلدي بأعضائه الأوفياء، النخبة التمثيلية الحقيقية لأهالي بيت لحم في جميع مصالحها وشؤونها المختلطة. ولما لم يكن لإخواننا المسلمين مقعد في المجلس البلدي قررنا إتيانهم حقهم واخترت لهم عضواً وكان ذلك تعهداً من المجلس

لإخواننا وللحكومة التي كانت تشكك في نجاح العضو المسلم في الانتخابات لقلّة أصوات إخواننا المسلمين وقد أثبت البيتلحميون وفاءهم لإخوانهم إذ كانت مرتبة العضو المسلم الرابع من حيث الأصوات من جملة ٨ أعضاء. استدعاني المغفور له جلالة الملك عبد الله في شهر أيلول ١٩٥١. وقال لي أود أن تكون أول سفير للملكة في مدريد فهيء نفسك للسفر في أسرع وقت ممكن إذ تربطنا بإسبانيا ذكريات تاريخية وقومية وحضارية هامة. وعلينا أن نحيا تلك الذكريات في تدعيم صلاتنا السياسية والثقافية ولم يمض أسبوعان حتى كنت جاهزاً للسفر. وقد وصلت مدريد في ١٩ أيلول ١٩٥١ وبعد أسبوع من وصولي قدمت أوراق اعتمادني للجنرال فرانكو في قصر اليرادو الواقع على بعد كيلومتر من مدريد. وكان يحضر الحفلة وزير الخارجية السنيور إرتاخو. ووزير القصر البارون «دي لاطوره» وبعد المراسم الرسمية سألني الجنرال عن سر هزيمة الجيوش العربية في معركة فلسطين.

أسباب الهزيمة المنكرة

قلت للجنرال فرانكو: إن سر الهزيمة المنكرة يكمن في الدرجة الأولى في انعدام الثقة بين مجموعة الدول العربية التي دخلت فلسطين يوم ١٥ أيار ١٩٤٨. لتحرير فلسطين وعدم تقديرها لقوة العدو ورواج الشكوك بين رؤساء الدول العربية. فكانت النتيجة أن تشرد شعب فلسطين المكافح والذي جاهد خلال ما يقارب من ربع قرن جهاد الأبطال وكانت الغلبة دوماً تتوج بطولته الشامة. كما أن سر الهزيمة مرده إلى ذلك الدعم العلني والسري المفضوح من قبل الولايات المتحدة وإنكلترا للعصابات اليهودية وتسليحها بجميع أنواع الأسلحة طوال عهد الانتداب بينما كان يحكم على الفلسطيني بالإعدام إذا وجد بحوزته بنادق خراطوش واحدة. وقد دامت المقابلة ساعة كاملة وقد طلب مني أن أقدم له مذكرة وافية بما شرحت له. وبالفعل أعددت مذكرة مستفيضة عن تلك الهزيمة المشينة وقدمتها له بعد يومين في حفلة تقديم الاعتماد.

بدء روابط الصداقة بالجنرال فرانكو

بعد وصولي بأسبوعين صادف أن كانت حكومة إسبانيا تقيم معرضاً للأراضي المقدسة دعي إليه جميع معتمدي السلك الدبلوماسي. وبمجرد وصولي إلى قاعة المعرض ترجل الجنرال فرانكو رحمه الله ووضع يده بيدي وطفنا جميع غرف المعرض

وفي النهاية سألني ما رأيك في هذا المعرض؟ فقلت له: إنه تكريم لبلادي بل أعتبره حية إسبانيا للأراضي المقدسة المستهدفة والمعرضة لخطر الإبادة بشرّ الصهيونية العالمية. فقال لي: سأقدم لك الآن شخصية هامة ستفيد مهمتك السياسية جداً. ولم تمض دقائق حتى قدم لي خوري فرنسيسكاني قال لي أنه الرئيس العام لرهبة الفرنسييسكان في إسبانيا واسمه الأب Lexicima فأخذت بطاقته وقررت أن أدعوه إلى مأدبة غداء أو عشاء لأحدثه بخطر الهجمة الصهيونية على الأماكن المسيحية المقدسة.

التقارب بين جنرال فرانكو وزعماء مراكش المنفيين

كانت نخبة من زعماء مراكش منفيين من قبل الحكومة الفرنسية في طنجة وكانت رواسب حرب الريف عام ١٩٢٥ لها أثرها السلبي في العلاقات بين الحكومة الإسبانية والريفيين. وكان من بين هؤلاء الزعماء حسن الوزاني وإخوانه. وكان المرحوم علال الفاسي حينذاك زعيم المراكشيين الأحرار ورئيس حزب الإستقلال فأخذت أحدث صديقي الحميم وزير الخارجية ليمهد لي الجو لدى الجنرال فرانكو لإزالة ضباب الجفاء الذي ما زال قائماً بينهم وكنت أشرح لوزير الخارجية الفوائد السياسية والعسكرية والإقتصادية التي تعود على إسبانيا إذ فتحت صفحة جديدة مع زعماء مراكش الذين ستكون لهم الكلمة الأولى في مستقبل سياسة المغرب. فلم تمض سنة حتى سمح لمعظم زعماء مراكش المنفيين في طنجة أن يأتوا إلى مدريد فجاء منهم الزعيم علال الفاسي وشقيقه عبد الفاسي والرحوم عبد الخالق طورس وغيرهم. وحصل بينهم وبين المسؤولين في إسبانيا انفتاح عميق وتفاهم عريق.

القدرة في وزارة الخارجية الإسبانية

بعد أن توطدت الصداقة بيني وبين المرحوم السنيور إرتاخو وزير الخارجية. سألته يوماً: إن وزارة الخارجية تستقبل المعتمدين من السلك السياسي في المساء بعد الساعة الخامسة من كل يوم فلو حصل أن حدث لهم مكروه كيف يمكن الاتصال بالخارجية؟ فضحك وقال لي لن يتغير شيء من نظام الكون فستظل الشمس تبتغ من الشرق وتغيب من الغرب؟

فرانكو كان مستعداً أن يرسل جيشاً لإخراج الإنكليز من قناة السويس

كان الجنرال فرانكو يقيم مأدبة عشاء فخمة لرئيس البرتغال سالازار عام ١٩٥٢ في قصر البرارو وما أن قابلني حتى خلا بي ناحية وقال لي: اكتب لجمال عبد الناصر أنني مستعد أن أرسل له جيشاً من ثلاثين ألف جندي بكامل معداته الحربية لإخراج الإنكليز من قناة السويس فقلت له: لست سفيراً لمصر فإذا نشئت سأدعو سفير مصر وهو قريب منا هنا وعليك أن تكلمه بالأمر. وهو صديقي. فقال: ادعه لي. فدعوته وكان سفير مصر يومئذ السيد حسين عزيز. وكان قنصلاً عاماً عام ١٩٢٥ في القدس. فدعوته فحدثه الجنرال فرانكو بما قاله لي فوعد أن يكتب للمغفور له جمال عبد الناصر وبعد أن انتهت الحفلة سألت صديقي السفير رأيه فقال: إنني سأكتب ولكن لا أدري إن كان سيادة الرئيس سيرد أم سيلتزم الصمت. ولقد لزم الصمت فعلاً إذ مضت أكثر من سنة دون رد...

رئيس الفرنسييسكان يزور الأماكن المقدسة

استحكمت الصداقة بيني وبين رئيس الفرنسييسكان في إسبانيا فأقنعتة بزيارة فلسطين ليزور الأماكن المقدسة ويزور الملكة الأردنية فسافر عام ١٩٥٢ ومكث نحو شهرين وعاد بعد أن زار مخيمات اللاجئين ورأى بأمر عينه الفاجعة الإنسانية التي اقترفتها الصهيونية العالمية فزادت حماسته لقضية فلسطين. وزود بعض أتباعه من رؤساء الكنائس أن يشيروا في مواضعهم في أيام الأحاد إلى تلك الجريمة الشرسة وإلى الخطر الجسيم التي يستهدف الأماكن المسيحية المقدسة ولا أعلم هل لا يزال حياً يرزق أم أصبح في العالم الآخر.

الخليفة في مدريد

الخليفة هو الممثل الشرعي لسلطان مراكش في تطوان وكان يزور مدريد بين حين وآخر وكان تجله يدرس في جامعة مدريد ويسكن بالقرب من دار السفارة الأردنية فتعارفنا وتصادقنا ولما حضر والده للمرة الأولى ذهبت وقدمت لسيادته احتراماتي وحدثته في بعض ما سمعته من زعماء مراكش ورغبتهم في الانسجام مع البيت المالِك وقد كنت أزور سيادته في كل مرة

يزور فيها مدريد. فتوطدت بيننا صداقة ودعاني لزيارة تطوان ضيفاً على سيادته في عيد الأضحى عام ١٩٥٢ فلبيت الدعوة وزرت تطوان وحضرت صلاة العيد في الجامع الكبير ودعيت إلى مأدبة عشاء العيد مع سفراء الدول وكبار أعيان تطوان وفي تمام الساعة الثامنة والنصف ذهبت إلى القصر الخليفي حيث استقبلني مثل سموه وفي الساعة التاسعة دعي المدعوون إلى مأدبة الطعام وقد تفضل سموه وأجلسني على يمينه ودار الحديث عن السياسية العربية فاغتنمت الفرصة بحضور بعض سفراء الدول وتحدثت مطولاً عن مأساة فلسطين وتنكّر الدول التي تدّعي المسيحية للدين المسيحي نفسه بدعمها للصهيونية العالمية عدوة الحضارة المسيحية بصورة عامة وعدوة الحضارة الإنسانية بصورة خاصة. إذ أعطت أرضاً لا تملكها لشعب غريب مسلح بخرافات تاريخية ومزود بأشرس أدباء العنصرية التي لا تستطيع العيش إلا في دوامات الفتن والثورات والدماء. وكان بين الحضور سفير إسبانيا وقد أعجب ما سمع وقال: إنك تشبه الإسبان بكل حركاتك وذكائك. فقلت له: كلا إنني عربي وأعتقد أن الكثير من الإسبان يجري في عروقه الدم العربي الأصيل إذ أقام العرب في بلادكم ثمانية قرون ولم يكونوا كسالي! وقد انتهت مأدبة العشاء نحو الساعة الواحدة صباحاً فشكرت سموه وودعته إذ كنت عازماً على العودة إلى مدريد في اليوم التالي.

في دار عبد الخالق طورس

دعاني ليلة وصولي إلى تطوان المرحوم عبد الخالق طورس إلى حفلة شاي أقامها في بيته ودعا نخبة من أحرار الحزب وفي أثناء الحفلة تكلمت مفصلاً عن مأساة الشعب الفلسطيني وجرائم الصهيونية العالمية والخطر الكبير الذي يستهدف العالمين العربي والإسلامي من جراء الطموح الصهيوني لاقتلاع الشعب العربي من دياره. ليس من فلسطين فحسب بل من جميع الشرق الأوسط. وأوضحت أن خريطة الصهيونية العالمية تشير إلى الإمبراطورية اليهودية من النيل إلى الفرات.

الكيف في شوارع تطوان

لفت نظري أن الكيف «الحشيش» - هكذا يسمونه - يباع علناً تحت أنظار السلطة في شوارع تطوان دون أي معارضة وأن أهل تطوان يخلطون هذا الكيف بعجين العيد وقد أهداني بعض الأصدقاء في تطوان. كمية من هذا الكعك لأطلع الجنرال فرانكو عليه.

مقابلة فرانكو بعد عودتي من تطوان

ما كدت أصل إلى مدريد عائداً من تطوان. حتى أخبرني رئيس الديوان في القصر البرادو. أن الجنرال فرانكو يرغب في مقابلتي الساعة الخامسة بعد الظهر. فقابلت الجنرال فرانكو في الموعد المحدد وسألني عن انطباعاتي بعد زيارتي لتطوان. وما هو شعوري الحقيقي حول ما سمعت أو حول ما قيل بالنسبة لسياسة الجنرال فرانكو إزاء مراكش؟

قلت له رحمه الله: إن جميع من قابلتهم من مسؤولين رسميين وشعبيين كلهم مستعدون لأية تضحية في سبيل استقلال مراكش تحت تاج المغفور له الملك محمد الخامس. ويودون أن يكون موقف إسبانيا مشجعاً لا معاكساً وأنهم يقولون لقد قدمنا الآلاف من الضحايا في الحرب الأهلية الإسبانية ضد الشيوعيين. وكان النصر للجنرال فرانكو نتيجة بطولتنا ووفائنا. لذلك يأملون أن تقدروا تلك التضحيات الجسيمة التي أنقذت إسبانيا وأوروبا. ويقولون أيضاً إنهم في حالة دعمت إسبانيا مطالبهم الاستقلالية فستكون إسبانيا حليفهم الأولى وصديقتهم الوفية المخلصه. ليس للشعب المغربي فحسب بل للأمة العربية بأسرها لأن المغرب جزء لا يتجزأ من الأمة العربية لذلك فهم يأملون أن يكون موقف إسبانيا من حركتهم التحررية موقفاً صريحاً ضد الاستعمار الفرنسي الذي ما زال يعادي السياسة الإسبانية الدولية.

وأكدت للجنرال أن المغرب ملكاً وشعباً مصممان على فداء استقلالهم بأعلى الأثمان. ومهما بلغت التضحيات. وأن إسبانيا في دعمها لحركة التحرير المراكشية ستريح معنوياً وسياسياً وعربياً. ووفاء صادقاً لا تشوبه أية شائبة من المغريين لها إذا ما قررت إسبانيا ألا تضع العراقيل أمام تلك الحركة الاستقلالية الواعية. فوعد أن يدرس الموقف بكل عناية واهتمام وأنه يؤيد فكرة استقلال مراكش إذا ثبت له أن الشعب المغربي سيحفظ لإسبانيا موقفها الجدي.

ثم ذكرت للجنرال مسألة بيع الكيف في شوارع تطوان وأنها مسألة شبيهة بما كانت تصنعه بريطانيا في الصين لتشجيع المخدرات تسهيلاً لتخدير الحس القومي - عن قصد - لتعميق إسفين الاستعمار. وفي رأبي أن السماح ببيع الكيف علناً في شوارع تطوان يحمل الكثيرين على الاعتقاد أن إسبانيا مسؤولة أدبياً عن هذا التساهل المغربي وعن فساد الأخلاق فرد علي قائلاً: إن حرسنا الخاص وعددهم ١٢٠ ألف مغربي يتعاطون الكيف وإذا منعهم قد يثورون علي. فقلت له: ربما هي العادة المستحكمة ولكنها عادة قبيحة ووخيمة العواقب ومغايرة لكل القيم والأعراف الأخلاقية ولذلك أرى أن تصدر الأوامر بمنع بيع الكيف في شوارع تطوان وبذلك يمنع حرسكم من تعاطي الكيف أيضاً. وإلى هنا انتهت المقابلة.

في مؤتمر القمح الدولي في البرتغال

وصلتني برقية من وزارة الخارجية بوجوب التوجه إلى لزيون عاصمة البرتغال لشراء ثلاثين ألف طن قمح للاجئين وكان ذلك عام ١٩٥٢ فسافرت ومثل العراق السيد محمد آل جميل. وبعد أن وصلت لزيون اتّصلت بالوفد المصري للاستفهام عن أجمع وسيلة لإجّاح مهمتي فقال لي رئيس الوفد المصري:

إن شراء أية كمية من القمح من قبل أية دولة ميسورة يتوقف على ما إذا كانت الدولة عضوا في المؤتمر أم لا. وبما أن الأردن ليس عضوا فهناك صعوبة كبيرة لإجّاح مهمتك، وعلى كل حال فإن المؤتمر سيعقد بعد وصول الوفد الأمريكي. ثم اتصلت بالوفد وفي يوم انعقاد المؤتمر طلبت أن يسمح لي بكلمة حول المهمة التي انتدبتني لها حكومتي، فوافق المؤتمر أن يستمع إلى كلمتي، فتحدثت عمّا تعانيه الحكومة الأردنية من عجز في تمويل نحو مئتي ألف لاجئ فلسطيني وأن الحكومة مستعدة أن تدفع الثمن الدولي لثلاثين ألف طن من القمح وأن حكومتي مستعدة أن تصبح عضوا في المؤتمر. فقال الرئيس بعد سماع كلمتي، أن المؤتمر سيتداول في الأمر وسنعلّمك برأي المؤتمر وطلب مني الانتظار خارج القاعة. وبعد نحو نصف ساعة قيل لي أن المؤتمر بأسف ويعتذر عن تلبية طلب الحكومة الأردنية. فطلبت من الرئيس الإذن بكلمة موجزة فأذن لي فقلت حرفياً: إنني أدرك أن مؤتمركم ليس سياسياً ولا يخوض في السياسة وقد تجنبت أن أشير إلى سبب الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني فتشرد بعد أن نهب وطنه وسرقت أرضه ولو كان هذا الشعب مسيحياً أو أوروبياً لسمعنا نواحاً عالمياً يزلزل الكون ولكن لما كان اللاجئين وأكثرهم مسلمون فإنني أسف أن أشعر أن رواسب صليبية لا تزال تتحكم في أعماق النفوس فماتت الضمائر وشلّ الشعور الإنساني وإنني بعد أن أغادر هذا المؤتمر سأعقد مؤتمراً صحفياً وأعلن للعالم رأيي هذا لعلي بذلك أكون قد أسمعْتُ بعضاً من ذوي الضمائر الحية. وعندما أنهيت كلمتي وكنت متأثراً جداً وحاولت الانسحاب. وقف رئيس المؤتمر وهو أميركي وطلب أن يخلو بي لحظة. فلبيت طلبه. فأعطاني عنوان وزارة الزراعة الأميركية وطلب أن أنتظر حتى الغداء ووعدني أن يبرق هو بدوره. وأني سألتقى الرد الإيجابي في مدريد من السفير الأميركي. فأبرقت لوزارة الخارجية بما حدث. وفي اليوم التالي عدت إلى مدريد واتصلت فور عودتي بالسفير الأميركي فأخبرني أن الحكومة الأميركية تبرعت بثلاثين ألف طن من القمح للاجئين الفلسطينيين. فأبرقت للحكومة وكان رئيسها يومذاك المغفور له سليمان النابلسي حيث أبلغ البرلمان بالتفصيل لما وصلت إليه النتيجة عملياً.

أوتو اسكورزينتي

أصبح اسم أوتو أسكورزينتي أسطورياً عالمياً. بعد أن أنقذ موسوليني من القلعة التي كان أسيراً فيها على رابية مطوقة بالجنود المدجج بالسلاح وكان ذلك الإنقاذ يطلب من هتلر رافةً بصديقه موسوليني وبعد هزيمة ألمانيا لتجأ أوتو أسكورزينتي إلى إسبانيا وأتخذ مدريد مقراً لإقامته.

وقد تعرفت في إحدى الحفلات السياسية على سيدة من المجتمع الأرسوقراطي الإسباني. وكانت على سعة من الثقافة السياسية وبصورة خاصة السياسة الشرقية. وقد دعتنا مراراً إلى بيتها وعرفتني على نخبة من كبار السادة والصحفيين وحدثتني أن صداقة تربطها بأوتو أسكورزينتي. فرجوتها أن جمعتني به فوعدتني أن تدعوه إلى عشاء فتقدمه لي وبالفعل دعته مع السيدة عقيلته إلى عشاء في بيتها فتعارفنا وكنا نلتقي أكثر من مرة في الأسبوع إذ كان يزودني في كثير من الأخبار المهمة خصوصاً تلك التي لها ارتباط بدسائس ومؤامرات الصهيونية العالمية. وقد توثقت بيننا صداقة حميمة وسهّلنا له زيارة القاهرة ومقابلة المغفور له جمال عبد الناصر وفي عام ١٩٥٤ زار مدريد خال امرأته المستر شاخت المشهور في عهد هتلر وقد دعاه أسكورزينتي إلى عشاء في بيته وروى القصة التالية:

• المستشار الألماني إيدناور بيكي

قال شاخت: إن المستشار إيدناور عندما ترأس الوزارة ليوقع على وثيقة تعويض اليهود قال: إن كل من سيوقع على وثيقة كهذه سيعتبره التاريخ خائناً وأنا سأوقع عليها وأقبل تهمة التاريخ في سبيل إنقاذ ألمانيا من القيود المفروضة عليها الآن. والتي ستمزقها إرادة الشعب الألماني غداً!!

• أسكورزينتي ويونس البحري

زارني صديقي يونس البحري في أواخر عام ٢٥٩١ وكان ضيفي العزيز في المفوضية ودعوت صديقي أسكورزينتي ليتعرف عليه وكانا يحتسيان كؤوس الخمر حتى الثمالة. ثم يأخذنا في الصباح بتحية هتلر. وذات ليلة ذهبنا إلى نادي ليلى وفي نحو الساعة الثانية صباحاً عاد السيد يونس إلى غرفته في المفوضية ثم طرق باب غرفتي وهو بيكي. فسألته: أتدري أين ذهبت؟ فقال: لا أذكر ولا أدري. فقلت له: أنت

ضيبي وأنا مسؤول عن فلوسك مهما بلغت. فلا تبك ونم هنيئاً وما أن رفع مخدته حتى وجد محفظته تحت الحدة فتحول بكاؤه سروراً وفرحاً ونام قريراً العين حتى الظهر.

• الملك الإدريسي يزور مدريد

كان جلالة الملك الإدريسي قد طلب من جلالة الملك حسين أن انتدب ممثلاً لليبييا في إسبانيا فأخطرت الحكومة الإسبانية بذلك ومكثت نحو سنتين كمثل لليبييا وفي عام 2591 زار جلالة الملك الإدريسي مدريد فاستقبلنا مع الزملاء سفراء العرب وحل في فندق رتزو وأقام له الجنرال فرانكو مأدبة عشاء فخمة وبعد يومين عاد مثبعباً بالإكرام إلى ليبييا.

الوصي ونوري السعيد وجميل المدفعي وفاضل الجمالي يزورون مدريد

زار المغفور له الوصي الأمير عبد الإله والمرحوم نوري السعيد وجميل المدفعي وفاضل الجمالي مدريد في زيارة رسمية فذهبت مع الزملاء العرب لاستقبالهم في المطار وحل سمو الوصي ضيفاً في قصر الضيافة على الجنرال فرانكو وكان معه نوري السعيد. كما حل السيدان جميل المدفعي وفاضل الجمالي في أوتيل رتزو. وقد وضعت سيارتي تحت تصرفهما وكنت معهما طوال مدة إقامتهما في مدريد. وكانت هنالك أزمة طارئة بين العراق والأردن. فتحدثت إلى نوري السعيد بوجوب تسويتها على اعتبار أن تسويتها لمصلحة القطرين الشقيقين. وفي مأدبة العشاء التي أقامها الجنرال فرانكو للمغفور له الوصي قلت لسموه: لكم يا سمو الأمير سفارة فعسى أن يسمح لكم الوقت بتشريفها. فوعد قائلاً: هي بيتنا ولا بد أن نزورها إذا سمحت الظروف بذلك. وبعد أن أقاموا نحو أسبوع عادوا بالإكرام والحفاوة إلى العراق.

زيارة وزير الخارجية الإسبانية للبلاد العربية

كان للجنرال فرانكو مخطط سياسي عميق الجذور. بعيد الأهداف إذ كان يفكر في تعميم خطر الاستعمار. المتفشي في الشرق الأوسط وفي قارة أميركا الجنوبية. فكان يحلم في خلق مثلث من العالم العربي برتمته وإسبانيا ومن مجموعة دول

أميركا اللاتينية. على أن يكون لهذا المثلث شبه برلمان يجتمع كل سنة في عاصمة من عواصم ذلك المثلث وأن يكون هناك تبادل وتعاون صناعي وتجاري وثقافي وسياسي وعسكري. بحيث يسد فراغ كل قطر من تلك الأقطار وكل مدينة وبلد. وكنت شخصياً من مشجعي هذه الفكرة واقترحت عليه كخطوة لتنفيذها أن يوجه الجنرال فرانكو بياناً للعالم العربي يشرح فيه رغبة إسبانيا في إحياء الذكريات والروابط الحضارية التاريخية التي تربط العالم العربي بإسبانيا وأن يعد وفداً يرأسه وزير الخارجية صديقي المرحوم إرتاخو. لزيارة جميع الأقطار العربية. جسا للنفض. واستقصاء عن إمكانية تحقيق هذا الهدف العظيم. وتوجه الوفد برئاسة وزير الخارجية وتصحبه كريمة الجنرال فرانكو وزار معظم الأقطار العربية واجتمع بمعظم وزراء خارجيتها ورؤساء حكوماتها وقد استمرت الرحلة نحو شهر ونصف وقد زار بيت لحم. وشرفني بزيارة بيتي حيث استقبلته كريمةاتي أولغا وسعاد وزوجيهما. وقد هرعت جموع كثيرة من عيون بيت لحم وقرعت أجراس الكنائس لاستقبالهم وأخذت لهم صوراً في بيتي.

كما زاروا الأماكن المقدسة وضواحي مدينة بيت لحم. وبعد أن عاد الوفد إلى مدريد ذهبت لأهني صديقي الوزير بعودته وسألته عن مدى نجاح مهمته فقال لي: إنه قوبل بإكرام وحفاوة وهذه ميزات الخلق العربي وأما من الوجهة السياسية فأكد لي - رحمه الله - أنه شعر وكأن في حنجرته كل وزير شيء لا يستطيع التعبير عنه بالألفاظ فعلى المرء أن يدرك أن معظم الذين اجتمعت بهم يشعرون وكأن عليهم رقياً وفي تقديري فإن الهيمنة الإنكليزية تكاد تكون في كل مكان وعلى هذا فإن مخططنا ينتظر تبدل الأحوال وتطور الزمن.

وزير خارجية إسبانيا يدعو الأستاذ الشقيري

كنت كتبت لصديقي الأستاذ أحمد الشقيري أن يهتم بصديقي السنيور إرتاخو وزير خارجية إسبانيا أثناء زيارته لمصر عام 1952. بصفته نائب الأمين العام للجامعة العربية. ويظهر أن خبايا من الحسد. حالت دون تمكن الأستاذ الشقيري من الاتصال بالوزير الإسباني ومحدثته في شؤون تهمة الجانبيين العربي والإسباني. وقد تلقيت من صديقي الأستاذ الشقيري رسالة بهذا المعنى فانتظرت حتى عاد السنيور إرتاخو من رحلته فرجوته أن يوجه دعوة خاصة. للأستاذ الشقيري لزيارة إسبانيا وبالفعل وجهت الدعوة. وحطَّ الأستاذ الشقيري على أرض إسبانيا. ووضعت نفسي تحت تصرفه وأقام له صديقي السنيور إرتاخو مأدبة غداء على شرفه وقام الأستاذ الشقيري بمقابلة المسؤولين عن شؤون المغرب كما زار نادي الطلبة المغربي. وقدمت زيارته فوئد جمة للقضايا العربية عامة ولقضية المغرب خاصة. وقد استرحت جداً لهذه الزيارة إذ كنت أشعر أن من الخطأ ألا يجتمع الأستاذ الشقيري بالوزير إرتاخو وقد سوّى الإعوجاج.

مصادرة جوازات زعماء مراكش من قبل السلطة الفرنسية في طنجة

كان الوفد مؤلفاً من نخبة زعماء مراكش، وهم السادة: علال الفاسي، وأحمد بلا فريج، ومحمد الشرقاوي، ومحمد الغزاوي، وأحمد بن سوذه، ومكي ناصري، ومحمد بن حسن الوزاني. وكان هذا الوفد يحمل جوازات سفر صادرة من ممثل السلطات في طنجة وكانوا متوجهين إلى الأمم المتحدة، للاتصال بالوفود العربية بقصد شرح قضية بلادهم المغرب المجاهد، وما كان من حاكم طنجة الدولي يومئذ إلا أن صادر جوازاتهم بأمر من السلطات الفرنسية. فراجعني المغفور له الزعيم علال الفاسي للتوسط في الموضوع، فأعددت فوراً مذكرة شجبت فيها عدوان حاكم طنجة على شرعية الجوازات الصادرة من ممثل سلطات المغرب في طنجة التي وإن كانت يومئذ تحت نظام دولي إلا أنها جزء طبيعي من المغرب وطلبت أن تعاد جوازات السفر حالاً لأصحابها لمواصلة سفرهم خصوصاً وأن حرية الإقامة والمرور في طنجة مباحان دولياً ولا يحق لأية سلطة الاعتراض. وبعد بضعة أيام أعيدت الجوازات لأصحابها وحلت الأزمة.

ملكة بلغاريا تطلب جوازاً أردنياً

أرسلت لي ملكة بلغاريا التي كانت تعيش في المنفى في مدريد سكرتيرها الخاص راجية إن أمكن إصدار جواز سفر أردني لأحد الكبار من كانوا في معيتها، فلن أتردد في منحه جوازاً مؤقتاً، أعاده بعد عودته من رحلته، وقد حضرت شخصياً إلى مكنتي في المفوضية وشكرتني ودعتني إلى حفلة شاي في القصر الذي كانت تعيش فيه في ضواحي مدريد، فلبيت دعوتها وقلت لها: إنني كعربي - وقد أصبح معظم قومي مشردين إزاء مؤامرة دولية شرسة - فإنني أقدر واجب مساعدة أي مشرد وأي طريد وكدنا أن نصبح صديقين.

ملك إيطاليا السابق يلبي دعوتي لحضور عيد استقلال الأردن

نشرت صحف مدريد أن ملك إيطاليا وصل إلى مدريد وحل في فندق بلاس وكنا أعدنا إقامة حفلة العيد الوطني الذي يقع يوم ٢٥ أيار في فندق بلاس. فوجهت دعوة لملك إيطاليا السابق وفي موعد الحفل حضر وأرسل باقة ورد لطيفة. وفي اليوم التالي زرته

في صالونه الخاص شاكراً تفضله واحتجرتني زهاء نصف ساعة مستطلعاً أنباء الشرق الأوسط العربي فشرحتها لجلالته شرحاً وافياً وكان في كل مرة حاولت فيها أن أستأذن لإنهاء حديثي يصبر بلطف وأدب أن يستبقيني مدة أطول.

عقلية الشعب الإسباني

لا شك مطلقاً أن إقامة السلطان العربي في إسبانيا مدة ثمانية قرون، تركت كثيراً من التقاليد والفوائد والفنون والآداب الحضارية العربية، فالإسباني يعيش ليحي، وليس عليه أن يسعى بل يشتهي ويتمنى، فإذا توفر رزقه واطمأن على يومه فالدنيا وما فيها لا تساوي في نظره شيئاً، وإذا جُهِمَ القدر في وجهه عبت له الحياة، وأحس بالخطر يهدده، هب كالجُن المارد، فيظل معتداً بنفسه في غير ما تهاون، وهو في الوقت ذاته، هادئ الأعصاب لا يؤمن بحقيقته كإيمانه بالموت، ولكنه إيمان الخلود، وهو يعتقد أنه طالما الموت حقيقة كلية واقعية محتومة، فعليه أن يستغل الحياة ما استطاع، وأن المتعة في الحياة هي جل مطلبه في هذا العالم، وأروي على سبيل المثال: أن الحياة الليلية في إسبانيا، عبارة عن مسرحية مرح وغرام وسرور إذ تنتهي سهراتهم الراقصة المفردة مع طلوع الشمس، وكنت أرى أثناء عودتي من كثير من الحفلات الرسمية والشخصية، بعد الساعة الثالثة صباحاً شبانا وفتيات منبطحين فوق الحشائش في الحدائق الغناء، وهم ينشدون ويغنون أغاني الحب والغرام وفي ذات ليلة كنت في عشاء في قصر اليرادو وكان إلى جانبي أشهر طبيب في مدريد فسألته بعد حديث عام، هل مرض ضغط الأعصاب موجود في إسبانيا؟ فنظر إلي باستغراب وسألني: هل درست الطب؟ فقلت: كلا لست طبيباً، ولكن أعتقد أن إسبانيا لا تعرف هذا المرض، فقال لي: هذه حقيقة ولكن كيف عرفت؟ فقلت له: إني أشاهد أثناء عودتي من الحفلات شبانا وفتيات منبطحين فوق الحشائش ينشدون ويتعانقون وهذا لا يمكن أن يترك كبتاً داخلياً ولا عصبياً، فقال لي: صدقت إنها نظرية علمية واقعية، كنت تعرفت على وزير الولايات المتحدة بداعي مهمتي وكنا نتبادل نوعاً من الصداقة وقد روى لي أنه مغادر مدريد وأنه سينشر كتاباً يضمه انطباعاته عن الشعب الإسباني فقال لي: إنه تصور بأن الإسبان انتخبوا وفداً لمقابلة الله عز وجل، ولما كانوا في حضرة الخالق العظيم سألهم ماذا تريدون؟ فأجاب رئيس الوفد: إننا نطلب من جلالتك باسم الشعب أن تمنحنا سماء صافية جميلة، فرد الله سبحانه وتعالى عليه بالإيجاب: ثم قال رئيس الوفد أما مطلبنا الثاني: أن تمنحنا نساء جميلات فاتنات فأجاب الله عز وجل بالموافقة أيضاً: فقال رئيس الوفد ومطلبنا الثالث أن تمنحنا نبياً لذيذاً يحيي الأعصاب ويفرح القلب فأجاب جلالته عز وجل بالموافقة أيضاً وأخيراً قال رئيس الوفد ولنا مطلب أخير إذا سمحت جلالتك، فسأل سبحانه وتعالى وما هو مطلبكم الأخير؟ نريد أن تهبنا حكومة ممتازة واعية عادلة حكيمة، فرد سبحانه وتعالى قائلاً: أما مطلبكم هذا فهو عسير ولا يمكن أن أمنحكم إياه، فاقبلوا الحاضر عسى أن يكون المستقبل خير وفرج.

أما ما خلفه العرب من متاحف خالدة كالحمراء وجامع قرطبة ومنارة إشبيلية وغيرها مما لا حصر لها وهو من اختصاص المؤرخين فعدا عن كونها كنوزاً لا تقدر بثمن فإنها تدر الدخل السياحي بشكل يفوق التصور. وأن كثيرين من المثقفين الإسبانين يعتزون ويفخرون أن في عروقهم يجري الدم العربي. وأذكر أن امرأة رئيس بلدية مدريد دعنتني مع عائلتي إلى عشاء في بيتها. بقصد أن تطلعني على شجرة نسبها الأموي المعلقة في صدر ديوانها والتي تعزز بها وتفتخر.

كذلك توطدت العلاقة بيني وبين العلامة الكبير خليل بن أمية الذي كان مستشاراً للجنرال فرانكو في الشؤون الشرقية والإسلامية وهو لا يزال مسلماً مع جميع أفراد عائلته وروى أن عائلته - عندما أصدرت الملكة ايزابل أوامرها بمنع من تبقى من المسلمين في إسبانيا من التكلم باللغة العربية. ومن مارسة طقوسهم الدينية الإسلامية طوال ثلاثمائة سنة - فإن واحد من أجداده واسمه محمد بن أمية قد ثار عام ١٩٣٤ وقد أحببت ثورته بالقوة وأن معظم المسلمين الذين تبقوا في جنوب إسبانيا. يحتفظون بالراية العربية وكانوا في كثير من الأحيان عندما يشعرون بظلم يقع عليهم يرفعون العلم العربي فوق بيوتهم احتجاجاً على ما يجري. وإعلاناً عن استعدادهم للمقاومة. وأكد لي أن نحو مئتي ألف مسلم ممن بقوا في إسبانيا اضطر أكثرهم أن يعتنق المسيحية مع العلم أن أكثرهم يعرف أن آباءه وجدوده مسلمون. وكان يقول لي دوماً: أن كثيرين من أولئك المسلمين عندما ضاق بهم العيش كانوا يمثلون بقول الشاعر العربي العظيم:

كلوا الآن من رزق الله وأيسروا
فإن على الرحمن رزقكم غدا

مصارعة الثيران

تعتبر مصارعة الثيران في إسبانيا هواية رياضية مرغوبة جداً كأنها جزء من تقاليدهم. ويتقن الإسبان صواب أو خطأ حركات المصارع فنياً. كناقذ مختص بحيث إذا غرس المصارع السيف في رقبة الثور. جانبياً أو من وراء ظهره. يضح الجمهور صراخاً مدوياً. تهتز له حلبة المصارعة حتى يطرد المصارع خاسراً مهزوماً. فيدوى المكان عندئذ هتافاً وتصفيقاً انتصاراً للثور الذي يسحب من ساحة المصارعة ليحل مكانه ثور آخر.

وقد سألت صديقاً صحفياً عن رأيه. بعد أن أظهرت له إشمئزاري من رؤية الثور. وقد غرست في رقبته السيوف والدماء تنهمر بشكل يثير العواطف والشفقة. فقال لي: إنها هواية يقصد بها ترويض الإسباني على الشجاعة والرجولة وعدم الخوف من رؤية الدماء فقلت له: لكم رأيكم ولي رأيي ولكني لا أرى هذا الرأي أبداً ولعلي مصيب.

عهد الجنرال فرانكو

وصلت مدريد في شهر أيلول عام ١٩٥١ وكانت معظم دول أوروبا والولايات المتحدة. قد فرضت مقاطعة تجارية واقتصادية تكاد تكون عامة. بحجة أن عهد الجنرال فرانكو هو عهد ديكتاتوري كهم فيه الأفواه وصادر الحريات. وألغى الديمقراطية في إسبانيا. وقد أدت المقاطعة المذكورة إلى حمل الجنرال فرانكو على ترويض الشعب بالاعتماد على نفسه وتحمل التضحيات والحرمات في سبيل خلق صناعات جديدة. وتزويد البلاد بما تحتاجه من المواد الضرورية. وبلغت حماسة الفرد الإسباني إلى حد ألا يبتاع أي منتج مهما كان نوعه إن لم يكن مصنوعاً في إسبانيا. وقد اعتنى الجنرال فرانكو في التدرج برفع مستوى الطبقة الوسطى بشكل ملحوظ فشرع في بناء المئات ثم الألوف من وحدات السكن وتدرج أيضاً في رفع أجور العمال حسب إمكانيات الدخل العام وكان يقوم بجولات أسبوعية تفقدية لجميع المشاريع الصناعية والشؤون الإدارية. كما كان يرأس مجلس الوزراء أسبوعياً يتحرى بدقة كل عمل وكل مهمة أنيطت بأي وزير من الوزراء. وخاصة إذ كان اجتماع الوزراء يتم يوم الخميس. فإذا رأى الجنرال فرانكو أن وزيراً من الوزراء لم يؤد الواجب المطلوب. كان يرسل له في صبيحة يوم الجمعة رسالة شكر على مساهمته في الحكم ثم يتمنى له السعادة والراحة في بيته. وحينها يدرك الوزير أنه قد أعفي من عمله. فأخذت إسبانيا تنتج كل ما تحتاجه البلاد. كما تأسست فيها مصانع كبرى للسلاح ولصناعة البواخر وسكك الحديد ثم قامت حركة عمران عملاقة ونشطت السياحة بشكل لم تستطيع أي بلد في أوروبا منافستها فازدهرت تجارتها وصناعتها وارتفع مستوى الطبقة الوسطى إلى درجة لم يسبق لها مثيل في تاريخ إسبانيا على الإطلاق. وأصبح الجنرال فرانكو معبود الجماهير لا تملقاً ولا إرهاباً بل شعوراً نفسياً وعتيدة وطنية. وكان حريصاً أن تعود الملكية إلى إسبانيا إذ كان يؤمن أنها ضمانة معنوية لوحدة الشعب ولذلك اعتنى بإعداد الأمير خوان الذي أصبح ملكاً كما أراد فرانكو.

كانت الشيوعية العدو الكبرى للجنرال فرانكو ولذلك لم يكن يسمح قط لأية دعاية ولو رمزاً للشيوعية التي حاربها وكلفت إسبانيا الوفاً من الشهداء. وكان فرانكو شجاعاً من أبطال التاريخ فقد روى لي وزير خارجيته المرحوم إرتاخو أن هتلر اجتمع به في عربة من عربات سكك الحديد في أثناء الحرب العالمية الأخيرة يوم كان هتلر مسيطراً على القارة الأوروبية ما عدا إنكلترا وطلب من فرانكو أن يسمح للجيش الألماني أن يمر إلى الشرق الأوسط عن طريق إسبانيا مقابل أي مطلب يطلبه فرانكو. فرفض بكل أنفه ما أثار اشمئزاز هتلر وغادر مكان الاجتماع غاضباً. إن أكبر شاهد على عظمة الجنرال فرانكو ما حققته إسبانيا في عهده من تقدم صناعي واقتصادي وتجاري وسياسي وعسكري إذ أصبحت تضاهي أكبر عواصم أوروبا بل عواصم العالم. ولا بد للعظيم من أن يترك أثراً عظيمة لوطنه ولأمته رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح الجنات وأنه سميع الدعاء.

الزعيم علال الفاسي يقيم لي حفلة وداع في مدريد

انتهى عملي كوزير مفوض للملكة الأردنية في إسبانيا في شهر تشرين الثاني عام ١٩٥٣ وأخذت أعد نفسي للعودة إلى البلاد ف جاء المغفور له زعيم حزب الاستقلال المراكشي علال الفاسي خصيصاً إلى مدريد مصراً على إقامة حفلة وداع كبرى لي بمناسبة انتهاء عملي وقرب عودتي إلى البلاد وحاولت عبثاً أن أعتذر. لكنه أحيا ليلة ساهرة وعشاء فخماً في فندق كريون في مدريد وفي نهاية الحفلة بالغ في الثناء على جهودي المتواضعة في سبيل القضية المغربية العادلة وقد شكرته - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - على كرم أخلاقه. وأكدت له ولنخبة من زملائه الذين جاؤوا معه أنني لم أعمل إلا ما كان فرضاً قومياً علي لا أستحق عليه أي شكر أو ثناء. واستمرت الحفلة حتى ساعة متأخرة من الليل. وأعدّ محضراً لها وقعه مع جميع الحضور.

الجنرال فرانكو يمنحني وسام الاستحقاق السياسي

وقد تفضل المغفور له الجنرال فرانكو ومنحني وسام الاستحقاق المدني الأكبر تقديراً لجهودي في سبيل دعم العلاقات الودية بين المملكة الأردنية والعالم العربي وإسبانيا.

حفلة وداع من قبل السلك السياسي

عين سفير البرتغال بصفته عميد السلك الدبلوماسي يوم الثالث من تشرين الأول عام ١٩٥٣ موعداً لحفلة وداعي من قبل السلك السياسي في مدريد. فذهبت مع مستشار المفوضية الشريف محمد والسيد السكرتير برهان الجيوسي إلى السفارة البرتغالية حيث كان كل من السادة سفراء مصر وسوريا، والعراق، والبرازيل والبيرو، والقائم بأعمال القاصد الرسولي فتحدث عميد السلك السياسي سيادة سفير البرتغال وقال: إن زملاءك يقدمون لك هذه الصينية الفضية موقعة من جميع المعتمدين السياسيين في مدريد كذكرى تاريخية لما قام بيننا من تعاون ومودة. وتمنى عليّ أن أواصل جهودي في الوطن العزيز في سبيل السلم في الأراضي المقدسة. فرددت عليه شاكرًا لجميع الزملاء الذين تفضلوا بتقديم هذا التذكار الثمين. الذي سيدوم إلى ما

بعد الممات، ووعدت أنني متى وصلت إلى بلدي أن أضرع إلى الله في مهد المسيح عليه السلام كي تظل فلسطين - وهي مهبط الوحي والإلهام، ومنبع النور والحضارة - منارةً وهاجّةً للسلم العالمي، لأن مصيرها هو الذي يقرر مصير الشرق الأوسط. بل مصير السلم العالمي. ثم أديرت كؤوس المرطبات وانتهت الحفلة في جو من المودة والكرامة ثم ودعت العميد ومجموعة السفراء شاكرًا لهم تكرمهم متمنياً لهم السعادة والرفاه والتوفيق.

مغادرة مدريد

غادرت مدريد مع عقيلتي وكرمتي في يوم ١٩٥٣/١١/٤ بالقطار إلى فالنسيا ومنها إلى إيطاليا ومنها ركبنا الباخرة إلى الإسكندرية فوصلنا إليها يوم ١٩٥٣/١١/٩ وكان في استقبالنا الصديق الوفي لظفي واكد الذي كان حاكماً عسكرياً لبيت لحم أثناء وجود الجيش المصري الباسل في بيت لحم. بعد وصولي إلى بيت لحم، أخذت إجازة لمدة شهر، ومن ثم استلمت الأمانة العامة في وزارة الخارجية وكان صديقي السيد جمال طوفان وزيراً للخارجية وفي سنة ١٩٥٤. عين المغفور له صديقي حسين الخالدي وزيراً للخارجية الذي وضع مخططاً واعياً لتوجيه السفراء سياسياً بصورة واقعية، فكلفني رحمه الله أن أجمل أو أختصر الأحداث العربية اليومية، في برقية موجزة نرسلها إلى السفراء ليكونوا على علم بما يحدث فلا يفاجأون ولا يباغتون. كما كلفني بإعداد تقرير أسبوعي مفصل عن أهم ما يجب الإطلاع عليه والإضطلاع به في قيامهم بواجباتهم.

عدوان اليهود على القدس

أذكر أن وزير الخارجية كان مريضاً ووقع عدوان رهيب على مدينة القدس يوم ٣٠ آذار ١٩٥٤، فكلفت أن أبلغ سفراء الولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا بما جرى. كما طلب مني أن أستفز حمية الدول العربية الشقيقة، فأعددت مذكرة أبلغتها لسفير أميركا وإنكلترا وفرنسا خلاصتها: إن الرأي العام يرى بأن عدوان اليهود على القدس مدفوع بمؤامرة وأنه يخشى إذا استمر هذا الهجوم الشرس أن تنطلق مفاجآت ذات عواقب غير حميدة، كما أعددت مذكرة ثانية أبلغتها لسفراء العرب وحدثتهم بأن هذا العدوان على القدس يعتبر عدواناً على الدول العربية جمعاء، وأن الجيش الأردني الباسل يتحمل مسؤولية الدفاع عن العرب أجمعين، وأن واجب الدول العربية أن تساهم فعلياً في دعم الأردن. وقد توقف الهجوم حينذاك بإنذار من رئيس الولايات المتحدة لسفير

إسرائيل كما أن هجوم اليهود صُدَّ ببطولة شامخة من قبل الجيش الأردني وظلت القدس في حِمى الأردن إلى أن وقعت الهزيمة النكراء يوم ٥ حزيران ١٩٦٧.

تعييني وزيراً مفوضاً في الشيلي

كان المغفور له الملك عبد الله يرغب في الحفاظ على حقوق المغتربين العرب إذ كان يعلم أنهم بلا جنسية. ويتعرضون لصعوبات في الحصول على جوازات سفر. فقرر رحمه الله أن ينتدبني لأكون وزيراً مفوضاً في الشيلي وخولني صلاحية مطلقة بإعطاء الجواز الأردني لأي عربي يطلبه.

السفر إلى الشيلي

برحت بيت لحم مع السيدة عقيلتي وكرمتي جهاد يوم الأحد الواقع في ٥ أيلول ١٩٥٤ إلى مطار قلندية. حيث رافقني رتل كبير من السيارات يحمل السادة الكهنة ووجهاء المدينة وسادتهم وشبابهم. وخركت بنا الطائرة في تمام الساعة العاشرة فوصلنا بيروت بعد ساعة وربع من الطيران. فوجدنا السيد عبد الحميد سراج سكرتير السفارة الأردنية والسيد سهيل ملاح سكرتير المفوضية الأردنية للتشيلي في انتظارنا ونزلنا في فندق كابتول.

وبرحت بيروت يوم ٧ أيلول ١٩٥٤ في منتصف الليل وكان في وداعنا سفير الشيلي في لبنان صديقي الحميم المرحوم حافظ اللبان والسيدة عقيلته. فوصلنا روما في الساعة السادسة صباحاً وبعد ساعة خركت بنا الطائرة إلى باريس. فوصلنا إليها في الساعة التاسعة صباحاً فوجدنا الصديق الوفي السيد يونس البحري في انتظارنا ونزلنا في فندق «ماي فير» «May Faire» وتغدينا في بيته وقضينا السهرة معه.

وبرحنا باريس يوم ١٠/٩/١٩٥٤ صباحاً متوجهين إلى الهافر وكان في وداعنا السيدان يونس البحري والدكتور جحا وفي نحو الساعة الواحدة بعد الظهر ركبنا الباخرة الفرنسية «أبل دفرانس» المتوجهة إلى نيويورك. وتعرفنا في الباخرة على السيد البارودي ممثل السعودية في الأمم المتحدة وكان معه الأميران ولدا المغفور له الملك فيصل آل سعود فوصلنا نيويورك بعد أربعة أيام

حيث مكثنا فيها أسبوعاً. ومن ثم ركبنا الطائرة التي أقلتنا إلى سانتياغو عاصمة الشيلي فوصلناها يوم ٢١ أيلول ١٩٥٤ حيث استقبلنا على الطائرة السيد نقولا جارور وجمع غفير من وجهاء الجالية العربية وكان صديقنا الوفي السيد قسطة زعرور في مقدمة المستقبليين وقدم للسيدة حرمي باقة جميلة من الورد كما كان ممثلون من وزارة الخارجية الذين اهتموا بنا واستقبلونا بكل بشاشة وترحاب ونزلنا في فندق كيررا لمدة شهر إلى أن استأجرنا مقراً للمفوضية في جبل سان لويـز.

تقديم أوراق الاعتماد للجنرال إيبانس

قدمت أوراق اعتمادي لفخامة رئيس الجمهورية الجنرال كارلوس إيبانس دلكابو في الثامن والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٥٤ الساعة الحادية عشرة . بحضور وزير الخارجية وهيئة البروتوكول وتلوت عليهم الخطاب التالي: يا صاحب الفخامة أتشرف أن أقدم لفخامتكم، باسم جلالة الملك حسين المعظم أوراق اعتمادي، كأول وزير مفوض للمملكة الأردنية الهاشمية، ونتطلع إلى تقوية روابط الصداقة والتعاون مع فخامتكم وحكومتمكم الموقرة، ويسرني أن أعلن لفخامتكم أن جلالة الملك حسين يولي اهتماماً كبيراً وعناية فائقة في المحافظة على الأماكن المقدسة المسيحية، التي هي وديعة التاريخ والأجيال. وإنني أغتنم هذه الفرصة لأقدم لفخامتكم باسم جلالة الملك وحكومته، أخلص التمنيات لكم ولحكومتكم الموقرة متمنياً لفخامتكم ولحكومتكم ولشعبكم العظيم السعادة والرفاه والتوفيق، وقد التقطت الصور التي تمثل الحفلة، كما التقطت صوراً أخرى لفخامته ولي في الخلوة التقليدية.

في الخلوة التقليدية

طلب فخامة رئيس الجمهورية بعد لحظات من تقديم أوراق الاعتماد، أن يخلو بي على حدة فسألني في هذه الخلوة السؤال التالي: ما هو موقف الدول العربية من جمال عبد الناصر؟ فأجبتته ما يلي: قلت لفخامته: مرت الأمة العربية بمرحلتين تاريخيتين خطيرتين، الأولى: يوم أيقظت رصاصة شهيد العرب الأكبر المغفور له الملك حسين الأول، الأمة العربية، ودعاها للثورة على الدولة العثمانية، ثقة منه بالعهد الذي قطعه بريطانيا على نفسها عام ١٩١٥ والمعروف بمعاهدة حسين مكماهون، والذي تعهدت بريطانيا بموجبها الاعتراف باستقلال البلاد العربية من مرسين واصله في الشمال ومن حدود إيران والخليج العربي شرقاً إلى

البحر الهندي، باستثناء عدن جنوباً إلى البحر الأحمر وسيناء والبحر المتوسط غرباً. مقابل أن يثور العرب على الدول العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى لإنهاء استبداد الإمبراطورية العثمانية بالأمة العربية. ويفهم من هذا التعهد المتبادل بين المغفور له الشهيد الأكبر الملك حسين شريف مكة ومكماهون مندوب بريطانيا السامي في مصر أن بريطانيا جادة فيما تعهدت للعرب به. حيث أكد مكماهون هذا العهد بمذكرة مؤرخة في ٢٤ تشرين أول ١٩١٥، وتعتبر هذه المذكرة أهم وثيقة دولية اشتملت على العهود التي دعت العرب إلى إعلان اشتراكهم في الحرب الأولى إلى جانب الحلفاء. ويفهم صراحة من بنود هذه الوثيقة أن فلسطين كانت داخلة رسمياً ضمن البلاد العربية التي يشملها الاستقلال. وقد اعترف الجنرال اللنبي بأن مساهمة العرب في الحرب في جبهات سوريا والعراق كانت رائدة النصر العظيم الذي حققه الحلفاء وبالرغم من ذلك تنكرت بريطانيا لتلك العهود وتأمرت على عرش الحسين ثم أسرته في قبرص ولم تطلق سراحه إلا بعد أن أيقنت أنه على موعد مع الموت. وأذكر أن المرحوم اللورد بيفريروك كتب مقالاً خطيراً في جريدته الديلي إكسبرس عام ١٩٣٨ أثناء مفاوضة الوفود العربية مع الحكومة البريطانية التي كان يرأسها المستر تشمبرلن أكد فيها ما جاء في تلك الوثيقة من أن فلسطين داخلة ضمن البلاد التي شملتها شرعية الاستقلال. وبرغم كل هذه الحقائق خدت بريطانيا الأمة العربية وباعت فلسطين العربية إلى الصهيونية العالمية دون أن يكون لها أي حق في بيع بلاد لا تملكها. وقد أصيب العالم العربي بصدمة نفسية عنيفة جراء ذلك. وعلاوة على ذلك قامت بترويح الدسائس بقصد تفتيت القوى العربية وإنهاكها، وظل الحال على ما هو عليه إلى أن ظهر البطل جمال عبد الناصر فأيقظ العرب في جميع أقطارهم وأخذوا يؤمنون بقوتهم الذاتية وحقهم في السيادة على أوطانهم وكان همه الأول والحقيقي إنزال الهزيمة بالاستعمار نهائياً عن طريق تحقيق الوحدة العربية. فإذا أحببت دسائس الاستعمار فان العرب سيعودون مرة ثانية إلى مسرح التاريخ سادة السلام والحضارة. ثم شكرت فخامته على تقديره لجهود الجالية العربية في مجالات الصناعة والتجارة والثقافة وشكرته بصورة خاصة لتفضله بالسير شخصياً في جنازة فقيده الجالية العظيم المرحوم حنين أبو جارور. فسر كثيراً من العرض المفصل الذي شرحت له فخامته وعاد يؤكد لي صدق مودته واحترامه وتقديره للجالية العربية كما كلفني أن أبلغ جلالة الملك أصدق تمنياته واحتراماته وقد دامت الخلوة زهاء ساعة.

النادي الفلسطيني يقيم لي مأدبة عشاء كبرى

أقام النادي الفلسطيني الذي كان يرأسه المرحوم السيد سليمان حزبون مأدبة عشاء كبرى حفاوة بقدمي كأول وزير مفوض للملكة الأردنية الهاشمية حضره نحو خمسمائة شخص من نخبة سيدات ورجال الجالية وقد تفضل رئيس النادي وألقى خطاباً بليغاً حيا فيه جلالة الملك وحكومته وتمنى لمثله التوفيق والنجاح مؤكداً أن الجالية ستدعمه وتؤيده بكل ما تستطيع.

فوقفت وشكرته وشكرت الجالية وتحدثت مفصلاً عن القضية الفلسطينية كما وعدت الجالية أن أكون عند حسن ظنهم. وأن جلالة الملك عبد الله فوضني بإصدار جوازات السفر لأي عربي يطلبها وانتهت الحفلة في ساعة متأخرة من الليل.

النادي العربي في فينا دلمار يقيم لي مأدبة عشاء كبرى

كذلك تفضل النادي العربي الذي كان يرأسه السيد المرحوم حنا المصو حفلة عشاء كبرى في فينا دلمار حضره أكثر من مئتي شخص من نخبة سيدات ورجال الجالية. تخللها خطبة رئيس النادي وممثل جريدة الماركوريو وردت عليهما بخطاب جامع وضحت فيه كل ما يهم الجالية من تطورات القضية الفلسطينية. ومن الجدير ذكره أو مما يضطرني الواجب إلى أن أشير إليه أن صديقي الحميم والشاب اللامع السيد قسطه زعرور. ساعدني كثيراً بمرافقته لي في زيارتي السياسية والاجتماعية خصوصاً في اجتماعي مع نيافة المرحوم الكردينال العظيم موتسنيور كاروفاني. إذ أسجل بمزيد من الامتنان شكري وتقديري لما قام به السيد قسطه من مساعدات كثيرة هامة ومفيدة.

أول عمل إنساني تؤديه الجالية

لم يمض على وصولي شهران حتى وصلتني البرقية التالية من وزارة الخارجية:

الوزير المفوض في سانتياغو الشيلي.
أرجو أن توجهوا إلى الجمعيات الخيرية في البلاد التي تمثل المملكة نداء لتزويد اللاجئين بالعقاقير الطبية وذلك لأن مرض السل يفتك في اللاجئين داخل المملكة والعقاقير اللازمة غير متوفرة فأرجو بذل المساعي لمكافحة هذا المرض.

وزير الخارجية

اتصلت على إثر استلامي هذه البرقية، بنخبة من كبار الجالية. وقد حضر نحو أربعين شخصاً من خيرة أبناء الجالية فعرضت عليهم الموضوع ورجوتهم الاهتمام بإخواننا اللاجئين فأظهروا منتهى النخوة والكرم وألّفوا لجنة لهذا الغرض. وقررت حينها

ألاّ جمع أية مبالغ من جمعيات البلاد، بل يصير جمع التبرعات من أبناء الجالية الفلسطينية. وانتخبّت اللجنة المرحوم السيد سليمان حزبون أميناً للصندوق. واشترطت أن ما يجمع من المال إما أن يرسل مباشرة لوزير الخارجية أو تشتري به اللجنة العقاقير اللازمة وتشحنها لوزير الخارجية. وإني لن أتسلم أي مبلغ من التبرعات إذ كانت مهمتي أن أستفز حمية الجالية نحو إخوانهم اللاجئين وفي ١٩٥٤/١٢/٩ تلقيت برقية من الخارجية تطلب مني وقف التبرعات والإكتفاء بما جُمع من رصيد فدعوت اللجنة وأبلغتها قرار وزارة الخارجية. فاجتمعت في دار المفوضية وجمعت رصيد التبرعات وباشرت اللجنة الاتصال بهمة ونشاط في معظم شركات الأدوية للحصول على أحسن الأسعار للعقاقير المطلوبة كي يصير شحنها فوراً إلى وزارة الخارجية في عمان.

الجالية العربية في الشيلي

يقدر عدد المغتربين العرب من فلسطينيين وسوريين ولبنانيين في جمهورية الشيلي بما يقارب المئتي ألف نسمة منهم تسعون بالمئة فلسطينيون وغالبيتهم من بيت لحم وبيت جالا والقدس وبيت ساحور. ويقال إن أول مهاجر إلى الشيلي جاء من بيت لحم قبل تسعين سنة. ومن أهم أسباب الهجرة العربية إلى الديار الأميركية سوء الإدارة العثمانية التي كانت سياستها تقوم على التجهيل والظلم والاستبداد. وكان هدف المهاجر العربي في البدء أن يكسب ويجمع مبلغاً وفيراً من المال يمكنه من العودة إلى وطنه. وكان الأعزب من المغتربين يتحمل مشاق السفر والنفقات الباهظة رغبة منه في أن يتزوج بفتاة من بلده. ودرج المغتربون في الشواطئ الأولى من بدء ثروتهم - أي بعد عودتهم إلى الوطن مباشرة من سفرهم - على بناء قصور جميلة ومساكن فخمة تكاد تقضي على ما وفروه أثناء هجرتهم فما كادت تمر مدة قصيرة على عودتهم حتى أخذوا يشدون الرحال ثانية إلى هجرة جديدة إلى أمريكا الجنوبية التي عاشوا فيها ومجّحوا. وفي البدء كانت تجارتهم في بيع السلع الثانوية كالأمشاط والمرابا وما أشبه وقد لاقوا في بداية هجرتهم. مشاق ومتاعب وأخطار عديدة. وقد لاقى بعضهم حتفهم من قطاع الطرق والصوص كما كانوا يقابلون بشيء من الازدراء والإهانة بسبب جهلهم للغة البلاد وعاداتها وعقيلة شعبها. وقد استمرت هذه الحال نحو من ربع القرن. ثم أخذ المكافحون منهم فتح المصانع الكبرى والمتاجر النامية حتى كادوا يستولون على زمام الصناعة والتجارة في معظم الجمهوريات الأميركية. وروى لي مدير أحد البنوك الكبرى عام ١٩٥٤ أن التجارة في الشيلي كانت في أيد المغتربين الفرنسيين. فلما جاء المهاجرون العرب وأخذوا يمارسون التجارة والصناعة. لم تمض بضع سنوات حتى استولوا على الصناعة والتجارة ثم أخذوا يعلمون أولادهم وبناتهم في الجامعات. فتخرج منهم المهندسون والأطباء والمحامون والصحفيون وحملة الأقلام والسياسيون فأصبح لهم مكانة مرموقة واعتبار ملحوظ في جميع الأندية على اختلافها وصار منهم وزراء وقضاة في المحاكم. وكان طبيعياً أن يتخلق هؤلاء الأبناء بأخلاق البيئة التي نشأوا فيها ونهلوا من ثقافتها وتقاليدها حتى قرر كثيرون منهم أن يتجنسوا بجنسية البلاد. وقد

برزت نخبة من المغتربين العرب في ميادين الصناعة والتجارة حتى كادوا يستولون عليها كما رصدوا قسماً كبيراً من أموالهم في مصارف أداروها بكفاءة نادرة فكانت تتفوق على كثير من المصارف المعهودة. وما يجب أن يذكر بفخر واعتزاز للجالية العربية في النشلي أن أول من شجع على إرساء الصناعة فيها هم آل جارور برئاسة زعيمهم المرحوم حنين. وآل سعيد. وآل الزمر وزعيمهم المرحوم سليمان الزمر فكانت هذه المصانع الأم التي غذت وشجعت المئات من المغتربين أن يقتفوا آثارهم فأصبح عدد المعامل الخاصة كبيراً وأبدت نجاحاً ملحوظاً. حيث قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة إلى أربعة آلاف معمل على اختلاف أنواعها وحجمها. وما يرفع الرأس عالياً أيضاً. أن معظم أصحاب المصانع والتجارة الكبيرة والصغيرة أعطوا مثلاً في الاستقامة والشرف والنوايا الحسنة الهادفة إلى خدمة البلاد ورفع شأنها. ومن المعامل الكبرى الجديدة والحديثة معمل القمصان للصديق الحميم والشيخ الوقور السيد زخريا أبو مهر. وهنالك معامل كبرى كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولكني اقتصر على ذكر أهمها.

النادي الفلسطيني

وما تعزز به الجالية الفلسطينية قلعة النادي الفلسطيني الشامخة التي يعود فضل إنجازها وترتيبها إلى رئيس النادي السيد كارلوس أبو مهر ونائب الرئيس السيد جورج منصور. أما فضل السيد أبو مهر فيتميز بإنفاقه على بناء تلك القلعة الشامخة من ماله الخاص كي لا يتوقف العمل ثم ينتظر حتى يسترد ما أنفقه مما تبرعت به الجالية بعد أشهر. وأذكر أنه عندما بوشرفي إقامة تلك القلعة. ظن الكثيرون أن الجالية لن تتمكن من إنجازها لكبر حجمها وارتفاع نفقاتها ولكن إرادة السيدين كارلوس أبو مهر و جورج منصور أثبتت أن الإرادة المشحودة بالإيمان كفيلة بصنع العجائب. ولا أبالغ إذا قلت أن قلعة النادي الفلسطيني الشامخة قد تعد الأولى من نوعها في أنافتها وعظمتها وجمالها واتساعها في جميع أنحاء أميركا الجنوبية. ولا شك أن استمرار الازدهار والتقدم الاجتماعي في هذا النادي يعزى لمساهمة أعضاء النادي الذين يمتازون خلقاً وثقافة وأدباً وهمة وحماسة فبارك الله فيهم وأدامهم مع رئيسهم ذخراً وفخراً للجالية الفلسطينية.

جمعية الإحسان للعجزة

من أعظم المفاخر التي ترفع رأس الجالية العربية عالياً في سماء الإنسانيّة جمعية الإحسان للعجزة التي تعتبر جنة غناء على الأرض فعمارتها تشبه قصراً من القصور الملكية في هندستها وأناقته ونظافتها وترتيبها. وتحتوي على حديقة مليئة

بالأزهار والورود والأشجار وكروم العنب المكتظة بأشهى الأنواع والألوان الزاهية المغرية. وفي الحديقة كنيسة تقام فيها الصلوات في كل يوم أحد ويعيش في هذه المؤسسة الخيرية نحو خمسين مسناً عاجزاً وعاجزة وكل واحد منهم في غرفته الخاصة ولديه الراديو والتلفزيون وحمامه الخاص وفي المؤسسة مائدة كبرى للأكل يرتادها الساكنون من المسنين والعجزة في ساعات الغداء والعصرونية والعشاء حيث تقوم على خدمتهم سيدات محترمات. وقد أسست هذه الجمعية عام ١٩٥٤. حيث تبرع بأرضها المحسن الكريم السيد ابراهيم عطا الله من خيرة رجال الجالية السورية الكريمة وترأس الجمعية لسنوات عديدة السيد النشيط سليم الواري عاونه نخبة ممتازة مخلصة من مثلي الجالية العربية من فلسطينيين وسوريين ولبنانيين وهي تعيش على مساعدات وتبرعات الأعضاء المشتركين والمحسنين. وتعتبر الجمعية خفة إنسانية مقارنة بجميع ما أنتجته الجالية العربية. بل منارة شرف تدلل على زحم الضمير العربي وقدرته على أداء واجبه الإنساني كاملاً دون مكابرة. ومعظم العجزة الذين يعيشون في هذه المؤسسة يعيشون على نفقة الجمعية مأكلاً وملبساً وراحة واطمئناناً. فبارك الله في رئيس وأعضاء هذه المؤسسة الزاهرة التي يحق لكل عربي أن يفاخر بها ويعتز.

جمعية الكنيسة الأرثوذكسية العربية

لقد سبق لنخبة من رجالات الطائفة الأرثوذكسية منذ أكثر من أربعين سنة. أن ساهموا مالياً في تأسيس الكنيسة الأرثوذكسية العربية الواقعة في شارع القديسة «فالومينه» وعين لها أول مطران من قبل البطريركية الإنطاكية المغفور له صاحبه القداسه إيليا ذيب. وكانت الجالية الأرثوذكسية في ذلك العهد متحدة متضامنة يغمرها الإيمان والتواضع وقد تطورت الأمور بتطور الظروف فتعاقب عليها رؤساء من خيرة الرجال الأرثوذكسيين وهي تدار الآن من جمعية تسمى جمعية الكنيسة الأرثوذكسية العربية تنتخب من الأعضاء المشتركين وقد استطاعت هذه الجمعية أن تؤمن للكاهنين المحترمين قداسة الأب أبو سعده. وقداسة الأب المرحوم زيادة. بيتاً محترماً لكل منهما للسكن مع عائلتهما وقد عين قبل عامين كاهن وطني جديد وهو قداسة الأب الخوري أنطون سمعان. وقد قام في الأونة الأخيرة نخبة من الشبان المتحمسين فأسسوا كنيسة جديدة أطلقوا عليها اسم كنيسة السيدة العذراء ورأس هؤلاء الشبان السيد خوسيه إيليا. وكانت الغاية من ذلك رفع شأن الأرثوذكسية وترويج عقيدتها المثلى وهذا يتطلب مرونة واعية وذكاء متميزاً يعمل على جمع صفوف الجالية وتوحيد أهدافها الثقافية روحياً ومعنوياً وهذا سيظل رهيناً بمدى الكفاءة المفروضة على من يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن مصير الأرثوذكسية في جو يتطلب منتهى الحذر والسهر وبعد النظر. ألهم الله المسؤولين طريق الصواب وسواء السبيل.

الصحافة التشيلانية

لا جدال أن في التشيلي صحافة. من الوجهة الفنية. تعادل أرقى صحافة عالمية. أما عقائدها فيحس المرء أن للصهيونية نفوذها فيها وللولايات المتحدة سلطانها. وقد يستمر هذا الوضع إلى أن يحدث تطور حتمي في مجال الوعي القومي والشموخ الذاتي. وبهذه المناسبة أود أن أؤكد أن في مقدور الجالية العربية إذا عازمت على أن تكون لها جريدة كبرى أن تحدث تطوراً كبيراً في مجال التوعية السياسية عربياً ودولياً. كما في استطاعة الجالية ومن مصلحتها أن تكون لها إذاعة راقية بكل معنى الكلمة. وفي الواقع أن هذه الفكرة ليست جديدة فكثيرون يتحدثون بها. ولعل الحديث بها سينتهي يوماً ما إلى تحقيق الفكرة عملياً وهذا ما يرجوه كل عربي مخلص لوطنه ولكرامته.

عقيلة الشعب الشيلاني

لا أحاول أن أكتب تاريخ التشيلي. فهناك مجلدات ضخمة يرجع إليها الراغب في الوقوف على دقائقه وأطواره. ولكن لا بد من تلخيص بعض المراحل التاريخية. التي يجدر العناية بها. للوقوف على التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي مرت بها هذه الجمهورية العظيمة. في معارج النهوض والتقدم. ولا غرو في أن تاريخ هذه المراحل يكاد يكون تاريخاً لمعظم جمهوريات أمريكا اللاتينية. فمعروف أن إسبانيا بعد أن تغلبت على السيادة العربية التي عاشت ثمانية قرون في الأندلس. سرت في عروقه. خبرة الروح العربية. فكانت هذه الخميرة نقطة انطلاق لآفاق الفتوحات والسيادة. حيث سيطرت على معظم الأقطار الأمريكية الجنوبية على حساب أصحابها الهنود الأصليين. فحكم ملوكها معظم تلك الأقطار نحو ثلاثة قرون وكان لاستبداد ملوك الإسبان واستئثارهم بالكبيرة والصغيرة عامل أساسي من العوامل الرئيسية التي حملت فريقاً من الإسبان أنفسهم على مناهضة ذلك الظلم. وحرير معظم جمهوريات أميركا من نير العبودية الإسبانية. فتداعى الاستعمار الإسباني وأشرقت على تلك البلاد أنوار الاستقلال والحرية. تغذيها الثقافة الإسبانية روحياً وأدبياً. وهكذا فإن فتوحات الإسبان في معظم الأقطار الأمريكية تحولت من استعمار مهين إلى حريات مشرقة وهاجة. على يد الإسبان أنفسهم وهذه هي الحقيقة في استقلال التشيلي.

وتمتاز جمهورية الشيلي بين جميع جمهوريات أميركا الجنوبية بأن الأكثرية الساحقة من سكانها هم من أصل أوروبي وغالبيتهم من الإسبان فالارلنديين فالألمان فالإيطاليين فالفرنسيين فالسوريين. فالسويسريين فاليوغوسلافيين. ويبلغ تعداد

سكان التشيلي اليوم أحد عشر مليوناً منهم نحو من ستين ألف هندي ويقدر عدد اليهود بنحو ستين ألف نسمة. إن هذا المزيج الأوروبي قد أكسب الشعب التشيلاني نقاوة عرقة وسعادة شعبه، وحيويته الناشطة، بحيث يشعر الزائر بأنه في إحدى عواصم أوروبا الكبرى. وتغلب على طباعهم ميزة المرح والأنس والاستمتاع بملذات الحياة ولديهم ميل غريزي للنكتة النادرة الغربية. كأن العمر في نظر التشيلاني ساعة، أي ساعة الحظ. كما يمتاز التشيلاني بكبرائه الوطنية فسرعان ما تختفي خلافاتهم ومنازعاتهم السياسية والشخصية إزاء أي عامل من شأنه أن يمس كرامة السيادة القومية أو يهدد كيان الوطن ولا أبالغ إذا قلت أن البطولة التشيلانية تحمل في إرادتها فوق ما تحمل الصاعقة، من رعد وزئير وإفناء، فهي بطولة التاريخ وبطولة شعب يؤمن أن الحياة بدون حرية وبلا كرامة ليست إلا عاراً وموتاً ذليلاً.

ويمتاز التشيلاني أيضاً بخاصتين عظيمتين بالإضافة إلى مزاياه العديدة أهمها وأسمها قيمة: حرية التفكير قولاً ونشراً وإذاعة إلى أقصى حدود الحرية فهم يؤمنون أن هذه الحرية هي الرمز الأكبر الذي يجعل للشعب مصدر السيادة جميعها. ومهما بلغ الخصام بين السادة المختلفين عقائدياً فكأن لا خلاف بينهم ولا عداة!! إذا ضمهم اجتماع يتباحثون فيه قضاياهم. والخاصية الثانية: تدينهم العميق فالأكثريّة الساحقة من الشعب الشيلاني تعتنق المذهب الكاثوليكي وهم متعصبون لعقيدتهم مع وجود تسامح مثالي إزاء المعتقدات الأخرى وبالرغم من هذه التوجهات الروحية النشيطة فإن الكنيسة لا يتجاوز سلطانها الروحي حدود التعاليم الإنجيلية التي باسمها تتدخل أحياناً للدفاع عن الفقر والعدل الاجتماعي مع أن كثيرين من أصحاب المكانة والرأي يعتبرون هذا التدخل كأنه نوع من الانتقاد لسياسة الحكومة.

ومن الحقائق الملموسة في قرارة الشعب التشيلاني، عدم ثقته باليهود فعندما يخلون إلى أنفسهم يصفون اليهود أنهم عنصريون وتبرز كراهيتهم واضحة من الوجهة الدينية في قضية صلب المسيح وما اطلعوا عليه من مؤامرات حكماء الصهيونية على المصير الحضاري للعالم أجمع.

فوز سلفادور ألندي في الانتخابات

فاز ألندي على معارضييه في الانتخابات بنحو ثلاثين ألف صوت، وبما أنه لم يحصل على أكثرية الأصوات أي نصف الأصوات المسجلة للتصويت بزيادة واحد. فإن القانون يفرض أن ينتخب البرلمان في مجلسيه أي مجلس الشيوخ والبرلمان شخصاً من المرشحين رئيساً للجمهورية، ولكن القيود التي جرى العرف عليها أن ينتخب من حاز أكثر أصواتاً من المرشحين الآخرين ولذلك انتخب المجلسان السنيور ألندي بالأكثرية رئيساً للجمهورية التشيلي.

استلام أُندي الحكم

استلم أُندي الحكم رسمياً وعين مجلس وزراء يمثل الأحزاب الاشتراكية والشيوعية وحزب شعبي كان رئيسه السيد رفائيل طارود الذي كان مرشحاً لرئاسة الجمهورية لكنه تنازل للسنينور أُندي في آخر لحظة. وقد وعد أُندي أنه سيحترم الدستور وأنه لن يقدم على أي عمل إلا بقانون يوافق عليه البرلمان. وكان البرلمان يومئذ بغالبيته يتشكل من الحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الوطني المؤيد للسنينور الساندرى. بينما لم يكن للحزب الاشتراكي والشيوعي إلا أقلية في البرلمان.

سر الانقلاب العسكري

ليس في استطاعة أي باحث منصف أن يعلل أسباب أي انقلاب أو أي اضطراب في أي بلد ما. دون أن يتطرق لتحليل واقعي دقيق. للبيئة التي وقع فيها الانقلاب. ذلك أن خصائص أي شعب من الشعوب هي القوة التي تقرر مصيره فإذا ما حصل أي ظرف طارئ فهذا من شأنه مناقضة تلك الخصائص أو محاولة اقتلاع جذورها. وهنا تتصافر غرائزها خدياً ودفاعاً. عما تعتبره سرا من أسرار وجودها. ورمزاً من رموز تقاليدها وفصلاً من تاريخها.

فقد يمتاز الشعب التشيلاني عن بقية شعوب القارة بخصائص وميزات جديرة أن تعرّف تعريفاً يضعها في إطار صورتها الحية الناطقة. فمن أبرزها. النضوج السياسي. فالشيلاني يؤمن بالديمقراطية إيماناً راسخاً. يصل إلى حد العبادة ويعتبر حرية الرأي زاده الروحي اليومي لا تستطيع أية قوة مهما بلغت أن تحبس أنفاس الشعب أو تحجب ظله. فهو من هذه الناحية ذو حساسية أرق من الهواء فلا يقبل ظلماً. ولا فرق إطلاقاً في هذا المجال بين وزير أو زعيم أو عابر سبيل. فكلهم فخورون بهذه الصفات. وعلاوة على ذلك فلديهم أنانية متمردة تهزأ بكل جبار وتختصر عمل كل محتال. كما أنهم حريصون على معتقدتهم الديني فلا سبيل للإلحاد أن يجد منفذاً إلى نفوسهم.

ومن الميزات البارزة في حياة الشعب اليومية أناقة هندامه فأنت لا تستطيع أن تميّز بين وزير وعامل. ولا بين امرأة ووزيرة أو صانعة وما لا شك فيه أن أناقة الهندام تبعث في النفس قوة الاعتدال وشموخ الذات. والشعور بالشخصية المتميزة والثقة بالنفس. ومن طبيعة التشيلاني. عبادة الحياة المرحية والمفعمة بالعيش الرغيد. والليل الغريد ذو المتعة والطرب الأصيل. فإذا ما طرأ على

الشخصية التشيلاانية المشبعة بهذه الميزات. ما يشعرها بخطر انتزاعها وإطاحتها عن عروشها. حتى تنتفض انتفاضة الأسود فلا تهدأ ثورتها إلى أن تظفر بالنصر المجلجل الأكيد.

هذه صورة حية ناطقة عن حقيقة النفسية التشيلاانية العتيدة فعندما أطل عهد جديد عام ١٩٧٠ وهو بعيد كل البعد عن جوهر الاشتراكية الحقّة. شعرت الأكثرية الساحقة من الشعب أنها إطلالة ظلام وظلم وإطفاء لأنوار الحرية التي يعتبرها التشيلااني الهواء العليل لرتيته.

وما كادت تمر السنوات الثلاث الأولى على هذا العهد حتى هزلت هيئة الحكم وتدهور الشرع. واختل الأمن وصودرت كبرى المعامل والمصارف والمزارع بلا مبرر دون أي تعويض وسلمت إلى أناس تنقصهم الخبرة والكفاءة فأمحلت البلاد صناعياً وزراعياً ومعنوياً. وقد سمحت الحكومة السابقة بإنشاء فرق مسلحة. لمس فيها الأهلون والأحزاب المعارضة خطراً على الأمن الداخلي وزاد الطين بلة. أن جرأت بعض هذه الفرق على محاولة إيجاد انشقاق في صفوف الجيش. وقد نشرت كبرى صحف المعارضة مخططاً إرهابياً هدفه مهاجمة الجيش واغتيال نخبة من كبار المعارضة. ما حمل قادة الجيش على التدخل بقوة السلاح. وفي نحو الساعة الحادية عشر من يوم ١١ أيلول ١٩٧٣. بدأت الطائفة تقذف دار الحكومة حيث كان ألندي مرابطاً. ولم تحن الساعة الواحدة بعد الظهر حتى كان الانقلاب قد تم. وشاع أن ألندي قد انتحر بموجب شهادة طبية. وقد تم الانقلاب بمنتهى الدقة والتخطيط. وساد الفرح والاطمئنان جميع البلاد وأخذت النساء يتبرعن بمجوهراتهن دعماً للجيش ليستطيع رفع شأن البلاد في تلك الفترة العصيبة وساهمت الجالية العربية بدورها بتقديم المساعدات للجيش في سبيل إنعاش الحال. وأخذ الجيش في تنظيم أمور الدولة مستعيناً بنخبة من المؤيدين المخلصين. وما لا شك فيه. أن الجيش يوم استلم البلاد. كانت الحالة الاقتصادية مزرية تكاد تصل إلى حالة الإفلاس التام. فبدأ الجيش من نقطة الصفر وتمكن بجهوده ومواظبته من إنقاذ الشيلي من محنتها برغم التأثيرات الخارجية والصعوبات المالية الكثيرة التي استطاعت إدارة الجيش أن تغلب عليها بالصبر والمودة والثبات المستمر. وكان هنالك فريق من الأحزاب القديمة خاصة الحزب الديمقراطي المسيحي الذي ما زال يلح من وقت إلى آخر. بوجوب إنهاء العهد القائم وانتخاب لجنة تمثل جميع الأحزاب والفئات لوضع الدستور لإجراء انتخابات حرة والعودة إلى العهد الديمقراطي الصحيح. وقد شكلت حكومة الجيش مجلس إدارة تعرض عليه القوانين والأنظمة. كما كلفت نخبة من الخبراء بوضع دستور جديد. يعرض لاستفتاء الشعب في الوقت الذي يعتقد فيه الجيش أن البلاد أصبحت في حالة سياسية. لا تخضع لأي مؤثرات خارجية بصورة خاصة الماركسية اللاتينية. ولا شك أن البلاد تسير اليوم في طريق التقدم الملحوظ صناعياً ومالياً وزراعياً وهنالك شركات أميركية قد أخذت امتيازاً للبحث عن البترول كما أن هناك شركات يابانية أخذت تباشر أعمالاً هامة في ميدان التسميك وشؤون تجارية هامة أخرى. كما أن شركات ألمانيا وفرنسية وأميركية وإنكليزية تتنافس لاستثمار كفاءتها وأموالها في التشيلي ما يبشر بمستقبل واعد بإذن الله.

الموقف الرسمي للتشيلي بالنسبة لقضايا العرب

دعا وزير خارجية التشيلي السنيور كافا خال سفراء الدول العربية المعتمدين في التشيلي وهم سفير سوريا ومصر والأردن. كما دعا رؤساء الأندية العربية: النادي الفلسطيني والنادي السوري، إلى حفلة عشاء رسمية تخللها إلقاء خطبة هامة جاء فيها:

«هذه حفلة عشاء أخوية إذ أن الروابط التي تربط بلادي مع البلدان العربية التي تمثلوها هي وثيقة صلبة، وإني أشير إلى الثقافة العربية العريقة التي تسربت عبر إسبانيا بشكل قوي. قد وصلت إلى هذه البلاد المستعمرة البعيدة من خلال الوطن الأم. وأن الآداب والعلوم والفنون وأساليب الحياة التي جاءت من الشرق الأوسط وجدت في التشيلي المناخ الملائم. وقد وصل منذ مطلع هذا القرن مهاجرون لبنانيون وسوريون وفلسطينيون وقد ساهموا في رفع مستوى البلاد عن طريق الصناعة والتجارة والآداب وأنا نقدر بإخلاص عمل أولئك المهاجرين المجتهدين الذين اندمجوا بإخلاص في الوطن الذي احتضنهم بأذرع مفتوحة. كل ذلك يعتبر مدعاة لدوام الصداقة التي تكنها التشيلي تجاه الدول العربية.

كما أن حكومتي لا تستطيع أن تظل غير مبالية إزاء الأحداث التي تتوالى في الشرق الأوسط. بالرغم من بعدها جغرافيا عن منطقة الصراع. فانطلاقاً من رسالتها السلمية، فإن التشيلي تشعر بقلق عميق إزاء الأدلة غير القانونية المطروحة لمشكلة الشرق الأوسط التي لم تعد تؤثر على أمن منطقة إستراتيجية ذات أهمية أولى فحسب. لكنها أيضاً أخذت تعرض للسلام للعالم للخطر.

إن حكومتي ترى أن حل مشكلة الشرق الأوسط. يجب أن تعالج من المجموعة الدولية دون إحداث أي ضرر من أي نوع كان. مع الحرص على قدر من الشعور بالواقعية، وبرأينا أن نصوص القرارات ذات العلاقة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ومن بينها القرار «٢٤٢» المتخذ بالإجماع في مجلس الأمن، تحتوي على العناصر الأساسية الثلاث لتحقيق هذا الحل. وبالدرجة الأولى لا بد من انسحاب القوات الإسرائيلية من أراضي الدول العربية التي تحتلها حالياً كما أننا لا نقبل. داخل القارة الأميركية احتلالات ناجمة في الواقع عن عمليات حربية. فلا يمكننا قبولها أيضاً على صعيد عالمي. وبالتالي فمن الضروري اتخاذ حل عادل ضمن أهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة لمشكلة الشعب الفلسطيني وأن يُعترف بحقه في حرية تقرير مصيره وفي سيادته الوطنية، وبعبارة أخرى أن يكون له وطن. وأخيراً يجب احترام الحدود الدولية والاستقلال السياسي لدول المنطقة.»

هذا أهم ما ورد في خطاب وزير الخارجية الذي ختمه بشرب نخب الجامعة العربية وشعوب الأمة العربية. وقد رد عليه باسم السفراء سعادة سفير سوريا بالخطاب التالي وخلصته:

« سيادة الوزير، سيداتي سادتي

اسمحوا لي باسم زميليّ سفير الأردن ومصر واسمي الخاص. أن أقدم لسيادتكم ولزوجتكم الكريمة. عميق شكرنا على هذه الدعوة التي هي تعبير عن الصداقة وكرم الضيافة وحسن الاستقبال الذي تميز بها الشعب التشيلاني. وأعبر كذلك عن شكري باسم الدول العربية الأعضاء في جامعة الدول العربية التي تفضلتم سيادتكم بالإشارة إليها وأشدتم بالصلوات الوثيقة التي تربط بين التشيلي وهذه البلاد. وما لا شك فيه أن هذه الروابط والصلوات ليست وليدة اليوم. وإنما هي امتداد للصلوات التي توثقت جذورها منذ زمن بعيد في إسبانيا والتي تشربت وتأثرت بالثقافة والتقاليد العربية.

إن أبناء الجالية العربية وذريتهم كانوا ولا يزالون عاملاً مؤثراً لاستمرار هذه العلاقات وتوثيقها بين بلدانهم الأصلية والتشيلي حيث ساهموا بكل إمكانياتهم في تطور وتقدم هذه الأراضي الكريمة في كافة المجالات الثقافية والعلمية والصناعية. إن تقديركم لهؤلاء المواطنين الصالحين الذين انطووا تحت راية التشيلي هو محل اعتزازنا. إننا نوافق سيادتكم على أن العالم مع تطوره المعاصر لم يعد يفرق بين دول بعيدة وأخرى قريبة جغرافياً. وأن التشيلي بالرغم من البعد الذي يفصلها عن منطقة الشرق الأوسط فإنها قد لمست هي أيضاً حساسية الموقف المتفجر. وأعربت عنه من خلال سياسة الحكومة الشيلانية الصديقة المحددة للعالم والصحيحة. وما لا شك فيه أنها جاءت وليدة دراسة عميقة وقناعة تامة بأن الإطالة غير القانونية في حل القضية العربية الفلسطينية تعرض السلام والأمن العالميين للخطر وذلك بسبب التعنت الإسرائيلي الذي يتمثل في استمرار احتلالها للأراضي العربية ورفضها للاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني. وجأهله كذلك للرأي العام العالمي المتمثل في القرارات المتتابعة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.

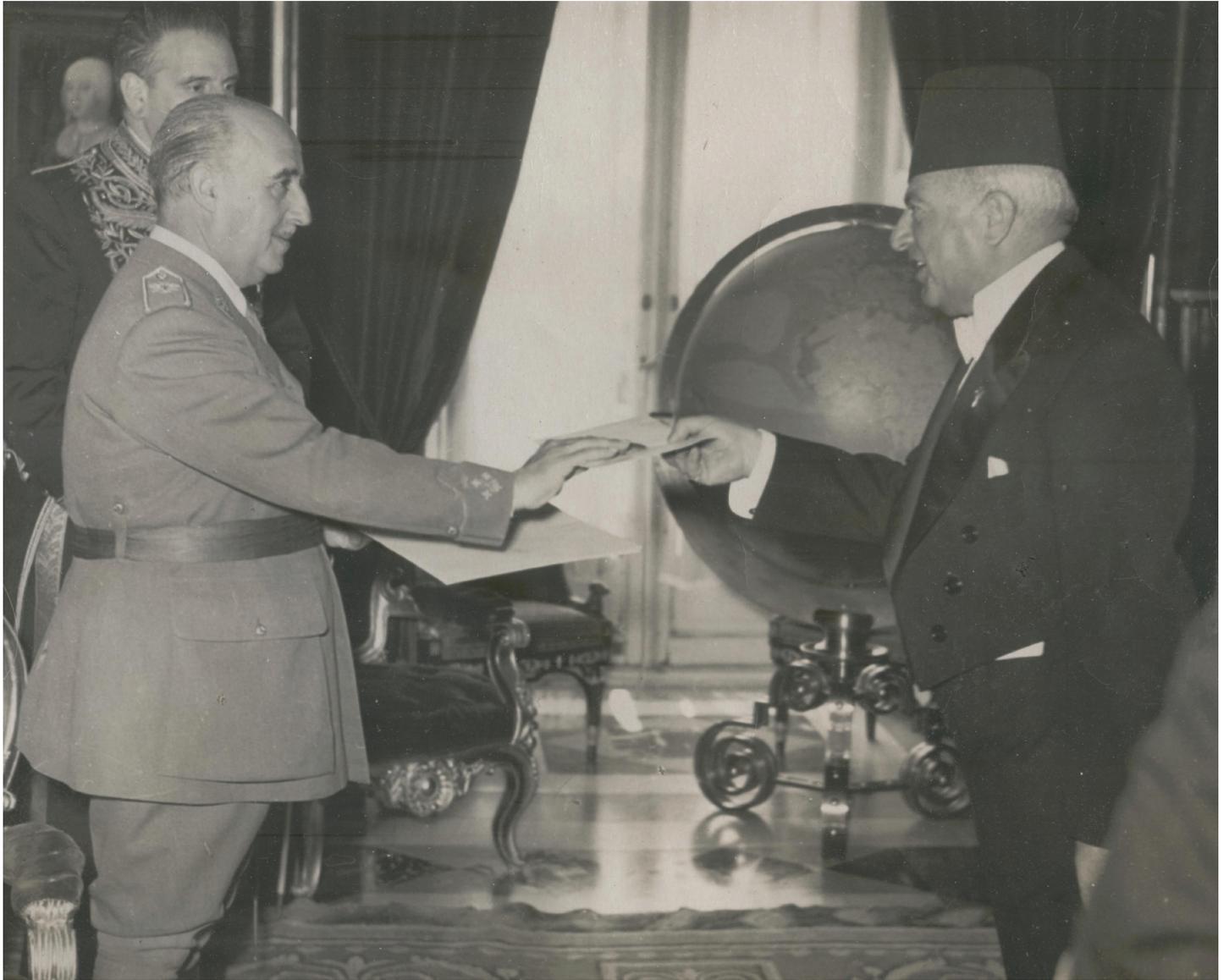
لقد تعرض الشعب الفلسطيني إلى التشرد والحرمان من حقوقه الطبيعية والسياسية في أن يعيش على أرضه ووطنه، بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. ولقد آن الوقت الذي يتحتم فيه أن تعاد إلى هذا الشعب - الذي يكافح بصورة مشروعة في سبيل قضيته وكرامة- حقوقه المسلوبة.

إن الشعب العربي بما طبع عليه من حب للسلام، يبذل كل جهد ممكن لتحقيقه، ولكن ليس أي سلام إنما السلام المبني على الحق والعدل الذي لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس الانسحاب الكامل من كافة الأراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وحرته وتقرير مصيره في أرضه ووطنه. إننا نبذل في هذا المجال بالتعاون مع دول العالم المحبة للسلام كل جهد لعقد مؤتمر جنيف. وإن افتتاح قناة السويس للملاحة الدولية جاء لخير العالم ورخائه هو دليل واضح على حسن النية. إن تحديد سيادتكم لسياسة التشيلي بالنسبة للقضية العربية بهذه العبارات الواضحة، والصريحة، تملأنا أملاً وثقة في أن تسفر هذه السياسة الجديدة عن نتائج إيجابية وتفتح آفاق جديدة لعلاقتنا ومجالات تعاوننا المختلفة وذلك انسجاماً مع قرار مجلس جامعة الدول العربية الداعي إلى تدعيم العلاقات السياسية والاقتصادية مع دول أميركا اللاتينية. ونحن بدورنا كسفراء في هذا البلد العزيز والصديق سوف نبذل كل جهد في سبيل تعزيز وتدعيم الصلات التي تربط بين البلاد العربية والتشيلي في مختلف المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية.

والآن اسمحوا لي يا سيادة الوزير أن نشرب نخب عظمة وتقدم التشيلي ونخب السعادة الشخصية لرئيسها الجنرال أجوستو بنوشه ونخب سيادتكم وزوجتكم الكريمة ونخب الصداقة الدائمة بين شعب التشيلي والشعب العربي.»









الى الشعب الانكليزي النبيل

قضت السياسة ان يكون الشعب العربي الفلسطيني مرتبطاً بعلاقات متينة مع الشعب الانكليزي النبيل وقد اصيحت فلسطين من وجهة ادارية جزءاً من اجزاء الامبراطورية الانكليزية الواسعة ولا شك ان تستري صرخات هذا الجزء انتباه الشعب البريطاني مستمدة منه عطفاً وقوة يستعين بهما على اقصاء ما يعد شذوذاً عن قواعد الحق الطبيعي ذلك الحق الذي له اثره ومفعوله في كمية الثقة والولاء المفروضين بين الانكليز والعرب

وليس في هذا الخطاب الذي تفرع به وجدان الامة الانكليزية تحامل يمليه الكره او قصر النظر وانما هو شعور الامة العربية الفلسطينية بما تعتقده واجباً لزاماً في عنق بريطانيا العظمى التي تشرف على ادارة فلسطين باسم الانتداب الذي هو ليس شيئاً آخر غير نتيجة الحرب العظمى التي قامت على مبداء تقرير المصير.

ولسنا نميل الى اتهام الجهات ذات الاختصاص بتعمد الاضرار بمقدرات المهاجرين الفلسطينيين ولكننا نعتقد ان هنالك افتراضات قائمة على اساس املاها التعسف في التقدير والاستنتاج مما سنبينه تفصيلاً في الملاحظات الآتية القائمة على هيكل الحقائق الناطقة والبراهين المعقولة الرصينة التي تمحو جميع ما افترضته وزارة المستعمرات وما خشيت

نداء

الى الشعب البريطاني النبيل

من

اللجنة التوضيحية للدفاع عن مفروق المهاجرين العرب

في الجنسية الفلسطينية



في ١ شباط سنة ١٩٢٨

مطبعة بيت المقدس @ القدس

MUNICIPALITY OF BETHLEHEM

Tel. No. 7105
P. O. B. No. 48

بلدية بيت لحم
تلفون رقم ٧١٠٥
صندوق البريد رقم ٤٨

رقم ٢

معظم هؤلاء العمال عاطلين عن العمل ويتضررون جواً واهبات
الجمعيات الخيرية بمستطيعه ان تقدم لهم المساعدات الكافية وليس في بيت لحم
اليوم الا معلان للهدف يشتغل فيهما نحو من خمسة عشر مائلاً فقط .
و اما صناعة التطريز فقد كانت مقتصرة على الفتيات والنساء وكان عدد المشتغلات بها
يسرع على اربع مئة فتاة وامرأة وقد اصيبت هذه الصناعة الفتيه بشلل قاطع .
٣ - وكان المورد الثالث ما يربحه نحو الفتي شخصين وظائفهم المختلفه وبتاجرهم
ومعاليهم وقد اصبح جيبع هؤلاء الاشخاص في حالة افلاس محقق لانعدام
الاشغال بصورة عامه .
٤ - وكان المورد الرابع بيع المال الذي يربله المهاجرون البيتلحيون القيمون في مختلف
اقطار اجراكا الى اهليهم ، ولكن هذا المورد اصبح شحيحا بسبب الحذر المالي الذي فرضته
معظم الجمهوريات الاميريكية نظرا للظروف الماليه العالميه .
٥ - كان عدد الفقراء في المدينه المقدسه قبل الحوادث الاخيره لا يزيد عن (٥٠٠ فقير)
وقد اصبح الان عدد الفقراء المسجلين لدى البلديه وجمعيات الاحسان (٦٠٠٠ فقير)
هذا هذا من مكات من العائلات المستوره التي تبيح ما تملك من مهورات
وانثات .

اننا مقبلون على مجامع محققه وانسي اصرح وضيري مرتاح ان
حالة اللاجئين احسن حالا من جيبع الوجوه من فقراء المدينه وانسي اخشى
اذا لم تعالج مسئلة تغذية اطفال بيت لحم بسوره ان يتعرضوا لمرض السل .
هذه هي الحالة الحزونه التي تنسرى فيهما مدينه
بيت لحم واننا نؤمل من حية الشعب الافرنسي التبييل ان يسارع الى فروع
هؤلاء التسعاه وذلك تكون فرنسا زعيمة الحرسه والاخاه والسواة قد ضرت مثلا
انسانيا عاليا يظل خالدا لها على التاريخ .

رئيس البلديه

MUNICIPALITY OF BETHLEHEM

Tel. No. 7105
P. O. B. No. 48

بلدية بيت لحم رقم ٧١٠٥
صندوق البريد رقم ٤٨

تقرير من حالة اللاجئين

فقراء المدينه عام ١٩٤٨

رقم ١

- ١ - عدد اللاجئين في قضاء بيت لحم يبلغ عدد اللاجئين في قضاء بيت لحم نحواً من ست وخمسين الفا موزعين كما ياتي .
(ا) في مدينه بيت لحم (٢١٢٨٧ لاجئا) منهم نحو (٣٥٠٠) مسكون المنوالعراء والاخرون مكثون في مساكن قديمه قل ان تتوفر فيها شروط الصحه .
(ب) في بيت جالا ١٢٠٠
(ج) في بيت ساحور ٦١٥٠
(د) في العرب (مخيم) ١٥٠٠٠ المروب - طريق القدس الخليل
(هـ) في بيت فجار ٢٢٠٠
٢ - ان الصليب الدولي يقوم بتقديم التمهن بمعدل ٤ كيلو واخيارا ٦ كيلوللفتر الواحد من الدقيق في الشهر مع مواد غذائيه اخرى ولا شك ان كمية التمهن غير كافية .
٣ - ان حالة اللاجئين الصعيه لا باس بها والفضل في ذلك الى اقليم بيت لحم المعتدل وكذلك صحه اطفالهم ولكن اذا طالت الحالة على ما هي عليه فقد تتعرض صحتهم الى خطر ادهم وما هو جدير بالذكر ان الاداره الصعيه قبل بضعة اشهر قامت بحمله تطعيم عامه ضد التيفويد والجدرى والتيفوس ما كان لها اثره الطيب في منع انتشار الابهه . ويكر الصليب الدولي بالقيام بحمله تطعيم ضد التيفويد في برهة امابيع وسماهم البلديه في هذه الحمله .

فقراء المدينه

- ١ - ان اهم الموارد الماليه لمدينه بيت لحم كانت تاتي من واردات عقاراتهم في القدس ، وحيثما هناك ، ولكن بعد ان احتل اليهود هذه المدن اصبح الملاكون البيتلحيون في حالة شبه الافلاس .
٢ - وكان المورد الثاني صناعات الصدف والتطريز التي كان يستعملها فيها السياح كميثا وافره كان يحث من ورائها نحواً من ١٥٠٠ عامل وكان عدد العمال نحواً من اربع مئله ولكن هذه الصناعه اصيبت بشلل وكساد مروعين بسبب الحالة الحاضره طابع

يتبع ٢

فهرس الهوامش

١. وعن تاريخ الصحافة الفلسطينية، انظر على سبيل المثال، يوسف ق. خوري، الصحافة العربية في فلسطين «١٨٧٦ - ١٩٤٨». الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٩٣، ويعقوب يهوشع، تاريخ الصحافة العربية الفلسطينية/ ١٩١٩ - ١٩٢٩، حيفا، ١٩٨١، وسلسلة أبحاث عن الصحافة الفلسطينية لقسطندي شوملي: 'جريدة الأخبار' «١٩٠٩ - ١٩٤٧»، القدس، ١٩٩٦، جريدة مرآة الشرق، القدس، ١٩٩٢، جريدة فلسطين «١٩١١ - ١٩٦٧» ثلاثة أجزاء، القدس، ١٩٩٠ - ١٩٩٢، وجريدة الكرمل «١٩٠٨ - ١٩٤١»، مركز اللقاء: القدس، ١٩٩٦.

See Adnan A. Musallam, "Turbulent Times in the Life of the Palestinian Arab Press: The British Era, 1917-1948," *Al-Liqa' Journal*, Vol. 41 «December 2008» and "Arab Press, Society and Politics at the end of the Ottoman Era," *Al-Liqa' Journal*, Vol. 25 «December 2005».,

فهرس الصور

١. ص ١٤٩ الطفل عيس بندك مع والده الخوري باسيل بندك ووالدته مريم.
٢. ص ١٤٩ عيسى بندك في أوائل العشرينات من القرن العشرين.
٣. ص ١٤٩ رئيس بلدية بيت لحم - عيسى باسيل بندك.
٤. ص ١٥٠ رئيس بلدية بيت لحم عيسى باسيل بندك في كنيسة المهد في أواخر الأربعينات.
٥. ص ١٥١ مبعوث الأردن الدبلوماسي إلى اسبانيا يقدم أوراق اعتماده إلى الجنرال فرانكو في أوائل الخمسينات.
٦. ص ١٥٢ باقة من الصور أبان خدمته في السلك الدبلوماسي.
٧. ص ١٥٣ اللجنة التحضيرية للدفاع عن حقوق المهاجرين العرب في الجنسية الفلسطينية.
٨. ص ١٥٤ تقرير رئيس بلدية بيت لحم - عيسى باسيل بندك حول الأوضاع في المدينة في نكبة ١٩٤٨.